حاسبوا أنفسكم

قبل أن تحاسبوا



المكتبة التوفيقية

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا

تأليف

عبد الحميد كشك

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مقدمـــة الكتـاب﴾

الحـمـد لله رب العـالمين، وأشـهـد أن لا إله إلا الله ولى الصبـالحين، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا محمداً رسول الله.

أما بعد...

فقد كان فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يقول: حاسبـوا أنفسكم قبل أن تحاسـبوا وزنوا أعمالكم قـبل أن توزنوا فإن مما يهون عليكـم الحساب غـداً أن تحاسبـوا أنفسكم اليوم، وتـزينوا للعرض الأكبر ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾[1].

رحمك الله يا أمير المؤمنين فأنت الرجل الذى ضرب الله الحق على قلبه ولسانه، يـا من كنت تخاف من الله تعالى خوف من يعـتقد أن النار لم تخلق إلا له وحـده فمن خـاف سلم، لقد غـصت فى معـانى آيات الحســاب حتى بلغت إلى أعـماق الأعمـاق وجرى دمعـك على خديك وخفق قلبك وجلاً وخوفًا من لقاء الله تعالى، وفهمت أن لقاء الله حق، واعتـقدت أن البعث حق وأن السـاعة حق وأن الجنة حق وأن النار حق، فصمت عن الدنـيا وأفطرت على الموت وأعددت الزاد لليلة صبـحها يوم القيامة.

---

(١) سورة الحاقة الآية ١٨.

يا رافعًا راية الشورى وحارسها
جزاك ربك خيرًا عن مُحِبِّيها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به
رغم الخلاف ورأى الفرد يُشْقِيها
إن جاع فى شدة قوم شَرِكْتَهُمُ
فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة - والدنيا بقبضته -
فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته
أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحَلْوَى فقال لها:
من أين لى ثمن الحَلْوى فَأَشْتريها؟
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به
أولى فقومى لبيت المال رُدِّيها
كذاك أخلاقه كانت وما عُهِدَتْ
بعد النبوة أخلاق تحاكيها
وراعَ صاحبَ كسرى أنْ رأى عُمَرا
بين الرعية عُطْلاً وهو راعيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا
ببردة كاد طول العهد يبليها
وعهده بملوك الفرس أن لها
سُورًا من الجند والأحراسِ يَحميها

رآه مـــســـتـغـــرقًـــا فى نومـــه فـــرأى
فـيــــه الجـلالة فى أسـمـى مـعـانيــــهـا

وقـــال قَـــوْلَـــةَ حَقٌّ أصـــبـحـت مـثــلاً
وأصـــبح الجـيــل بعــد الجِـيلِ يَرْوِيهـــا

أمنــت لما أقـــــمــت العـــــدل بـينــهُـمُ
فنِـمْتَ نَوْمَ قَـــرِيـرِ العين هـانِيــــهــــا

قــد كنت أعــدى أعــاديهـا فـصـرت لهـا
بنعــــمــــةِ اللهِ حــصنا من أعــــاديهـــا

أيها الأخ المسلم

لا تنس مـا بعد الموت، فنسيانه ضـلال مبين، فاذكـر اثنين وانس اثنين، ولا تنهر اثنين واحفظ اثنين ولا تأمن اثنين على اثنين.

اذكر الله والموت، وانس إحسانك إلى الناس، وإساءة الناس إليك، ولا تنهر أمك ولا أباك، واحفظ صمتك وأوقات فراغك، ولا تأمن امرأة على سر، ولا تأمن رجلاً على امرأة.

واعمل عقلك وقلبك وفكرك فى فـهم قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالـذين نسوا الله فأنسـاهم أنفسـهم أولئك هم الفاسـقون. لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾**[1].

(١) سورة الحشر الآيات [١٨ : ٢٠].

فصل
فيما يرقق القلب وَيَمْلَؤه خشوعًا وخشية لله تعالى

الحمد لله رب العالمين، وأصلى وأسلم صلاة وتسليمًا يليقان بمقام أمير الأنبياء والمرسلين. وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمدًا رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين. صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبى الأمين، وعلى آله وصحابته الغر الميامين، وارحم اللهم مشايخنا، ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين.

الحمد لله الذى لا تدركه الأوهام ولا الظنون ولا تحويه الأبصار ولا العيون ولا تناله الآفات ولا المنون، الذى أنزل الكتاب المكنون وأرسل السحاب الهتون وأخرج رطب الثمار من يابس الغصون وخلق الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون.

تكونت بقدرته الأشياء وتوالت برحمته الآلاء وانشقت بحكمته الأرض والسماء، وكتب بمشيئته السعادة والهناء فيرحم من عباده من يشاء وإليه تقلبون. الشافى صدور أولى الألباب النافى باتقان مصنوعاته كل شك وارتياب **﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾**[1].

أنشأ بحكمته أصناف المبتدعات، وقدر الأشياء من ماضٍ وآت وغفر بالمتاب سائر الخطيئات **﴿وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾**[2] مبدع الدهور بالأحداث ومصور الذكور والإناث وباعث من فى القبور فينهضون بالانبعاث **﴿ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾**[3].

---

(١) سورة الروم الآية ٢٠.　(٢) سورة الشورى الآية ٢٥.

(٣) سورة يس الآية ٥١.

﴿وجعل الشمس سراجًا﴾[1] **﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا﴾**[2]. **﴿ولو نشاء لجعلناه أجاجًا فلولا تشكرون﴾**[3].

الكريم الشكور الرحيم الغفور المنزه فى أقضيته عن أن يظلم أو يجور **﴿الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾**[4] . مالك الأشياء بالطول والعرض وقبل من عباده السنن والفرض وإليه المآب والعرض. **﴿وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون﴾**[5].

أتقن خلق الإنسان وأبدع وركب فيه حركاته وأودع **﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾**[6]. أوضح سبيل الرشاد وبين مسالكه، وأسبغ على العباد نعمه المتداركة ونور وجوه الموحدين فهى مسفرة ضاحكة **﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة . هذا يومكم الذى كنتم توعدون﴾**[7]!!.

أرسل من المعصرات الماء إلى الأرض، وأنزل وأسبغ بفضله الآلاء، وحول وقضى على خلقه بما شاء وأجزل. **﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾**[8]. أتقن صنعة خلق العالم وأحكم وجاد عليهم بفائض رزقه، وأنعم ويدرك بهم السر المكنون المبهم **﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾**[9]. رب المشرقين ورب المغربين ومنوّر الكون بالنيرين **﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾**[10] أفاض على أوليائه من جزيل نعمائه فضلا ونوالا وأعد لأعدائه من عذابه وبالاً ونكالاً وحجبهم

---

(١) سورة نوح الآية ١٦ .

(٢) سورة النبأ الآية ١٤ .

(٣) سورة الواقعة الآية٧٠ .

(٤) سورة الأنعام الآية١ .

(٥) سورة الروم الآية ٢٦ .

(٦) سورة الأنعام الآية ٩٨ .

(٧) سورة الأنبياء الآية ١٠٣ .

(٨) سورة الأنبياء الآية ٢٣ .

(٩) سورة النحل الآية ٢٣ .

(١٠) سورة الذاريات الآية ٤٩ .

عن إدراكه فلا يتوهمون له شبيها ولا مثالا ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾[1].

ليس كمثله شيء ولا لنشر فضله طيّ ولا يعتري المهتدى إلى سبيله فيّ . . . ﴿يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾[2] أحمده حمدا يتقرب به المتقربون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنفع قائلها يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبى العربى الأمين المأمون . . . صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون .

وبعد : فهذه ذكرى وعبر، والذكرى تنفع المؤمنين .

فصل
إياك والجبن وكن شجاعًا واعلم بأنه لا يملك الروح والرزق إلا الله تعالى

وعن هذا الداء الخطير وهو الجبن نقتطف كلمات للإمام الشيخ محمد عبده :

يقول رحمه الله تعالى : ما العلة فى إخلاد الجمهور الأعظم من بنى الإنسان إلى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول إلى ما أعدته لهم العناية ويستفزهم إليه الميل الغريزى خصوصًا وإن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ترجو ثوابًا على الباقيات الصالحات وتخشى عقابًا على ارتكاب الخطيئات . . . وتعترف بيوم العرض الأكبر

---

(١) سورة النحل الآية ١ .

(٢) سورة الروم الآية ١٩ .

يوم تجزى كل نفس بما كسبت **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾**[1] .

ماذا يقعد بالنفوس عن العمل الصالح ؟

ماذا ينحدر بها فى مزالق الزلل ؟

إذا ردت المسببات إلى أسبابها وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها : وجدنا لهذا علة هى أم العلل، ومنشأ يقرن به كل جلل وهو (الجبن) . . «وعن أضرار الجبن» قال : «الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها» .

هو الذى قطع روابط الأمم فحل نظامها . هو الذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم، وأضعف قلوب العالمين فسقطت بروجهم وهو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين .

يسهل على النفوس احتمال المذلة، ويخفف عليها مضض المسكنة، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل، يوطن النفس على تلقى الإهانة بالصبر والتذليل وبالجلد ويوطئ الظهور الجاثية لأحمال المصاعب أثقال مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والإقدام .

والجبن : يلبس النفس عاراً عند كل روح زكية وهمة عالية .

والجبن : مرض من الأمراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التى جعلها الله ركنا من أركان الحياة الطبيعية . وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت .

والموت: مآل كل حى ومصير كل ذى روح .

ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر فى كل لحظة ولا يعلمه إلا مقدر الآجال . . جل

---

(١) سورة الزلزلة الآية [٧ ، ٨].

شأنه: **﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غدًا وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾**[1]. يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم والذهول عما أعده الله للإنسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله.

نعم يغفل الإنسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقيًا للحياة وهو الشجاعة والإقدام. سببًا فى الفناء يحسب الجاهل أن فى كل خطوة حتفًا، ويتوهم أن فى كل خطوة خطرًا مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الإنسانية وما ناله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم، وما ذللوا من المصاعب فى سيرهم تكشف له أن تلك المخاوف إنما هى أوهام وأصوات غيلان ووساوس شياطين. غشيته فأدهشته، وعن سبيل الله صدته ومن كل خير حرمته.

الجبن: فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام لتغتال به نفوس الناس، وتلتهم به الأمم والشعوب. هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله.

هو علة لكل رذيلة ومنشأ لكل خصلة ذميمة لا شقاء إلا وهو مبدأه ولا فساد إلا وهو جزثومته ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه.

ممزق الجماعات ومقطع روابط الصلات، هازم الجيوش ومنكس الأعلام ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة!

والجبن: هو الذى يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب كما أنه هو الذى يبسط أيدى الأوفياء لدنيئة الارتشاء، وأن الخوف من الفقر يرجع فى حقيقته إلى الخوف من الموت وهو علة الجبن.

والجبن: عار وشنار على كل ذى فطرة إنسانية. خصوصًا الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويؤمنون أن ينالوا جزاء أعمالهم أجرًا حسنًا ومقامًا كريمًا.

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٤.

واجب المسلمين

وعن واجب المسلمين قال: (ينبغى أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله وأنهم لا يبتغون إلا رضاه.

يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت : علامة الإيمان، وامتحن به الله قلوب المعاندين يقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين: ﴿**ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب**﴾[1].

الإقدام فى سبيل الحق وبذل الأموال والأرواح فى إعلاء كلمته، أوسمة يتسم بها المؤمنون. لم يكتف الكتاب الإلهى بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الأيدى، وعدّ ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح فى إعلاء كلمة الحق والعدل الإلهى بل عده الركن الوحيد الذى لا يعتد بغيره عند فقده. لا يظن أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامى وبين الجبن فى قلب واحد.

كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام، وأن عماده الإخلاص لله والتخلى عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه. المؤمن من يؤمن أن الآجال بيد الله يصرّفها كيف يشاء، ولا يفيده التباطؤ عن الفروض زيادة فى الأجل ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه.

المؤمن من لا ينتظر بنفسه إلاّ إحدى الحسنيين إما أن يعيش سيداً عزيزا وإما أن يموت مقربًا سعيدًا . وتصعد روحه إلى أعلى عليين ويلتحق بالأكرمين والملائكة المقربين.

---

(١) سورة النساء الآية ٧٧.

الجبن والإيمان

من يتوهم أنه يجمع بين (الجبن) وبين الإيمان بما جاء به حبيبنا محمد ﷺ فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه، بل هو ليس من الإيمان فى شىء. كل آية من القرآن تشهد على (الجبان) بكذبه فى دعوى الإيمان.

لهذا نؤمل من ورثة الأنبياء (العلماء) أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته والنهى عن التباطؤ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك.

واجب العلماء

وأغلب الظن عندى أن العلماء إذا قاموا بهذه الفريضة فريضة (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) زمنًا قليلاً ووعظوا الكافة يتبين معانى القرآن الشريف وإحيائها فى نفوس المؤمن لرأينا لذلك أثرا فى هذه الملة السمحة يبقى ذكره أبد الدهر لشهدنا له يوما تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا وهو مجد : الله أكبر.

فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن فى أفئدتهم من آثار العقائد: لا يحتاجون إلا لقليل من التنبيه وبشىء يسير من التذكير فينهضوا نهضة الأسود فيستردوا مفقودًا ويحفظوا موجودًا وينالوا عند الله مقامًا محمودًا .

فصل

مرض الرسول ﷺ ووفاته

ذكر كتاب السيرة أن رسول الله ﷺ بعد أن عاد من حجة الوداع أمر بتجهيز جيش عروم إلى الشام جعل فيه المهاجرين الأولين (منهم: أبو بكر الصديق، وعمررضى الله عنهما) وأمر على الجيش (أسامة بن زيد بن حارثة) وكان أسامة يومئذ حدثًا لا يكاد يعدو العشرين من سنه،

والنبى ﷺ إنما أراد بتعيين (أسامة) أن يقيمه مقام أبيه الذى استشهد فى موقعة (مؤتة) وأن يجعل له من فخار النصر ما يجزى به ذلك الاستشهاد وما يبعث إلى جانب ذلك فى نفس الشباب الهمة والحمية ويعودهم الاطلاع بأعباء أجسم التبعات، وخرج (أسامة) والجيش معه إلى (الجرف) يتجهزون للسفر إلى (فلسطين) وبينما هم كذلك إذ حال مرض الرسول ﷺ ثم اشتداد المرض به دون مسيرهم.

وقد يسأل إنسان : كيف يحول مرض الرسول ﷺ دون مسيرة جيش أمر بجهازه وسفره؟ ونحن نقول: إن مسيرة جيش إلى الشام يقطع البيد والصحارى أيامًا طويلة ليست بالأمر الهين، ولم يكن يسهل على المسلمين والنبى أحب إليهم من أنفسهم أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم يعلمون ما وراء هذا المرض، ثم إنهم لم يعرفوا قط - من قبل- أنه شكا مرضًا ذا بال. إذ أن حياته وتعاليمه كانت تنأى به عن المرض فهذا الزهد فى الطعام ونيل القليل منه، وهذه البساطة فى الملبس والعيش، وهذه النظافة التامة نظافة يقتضيها الوضوء والسواك الدائم (وكان يحبه ﷺ ويحرص عليه حتى ليقول : إنه لولا خوفه أن يشق على قومه لفرض عليهم السواك فى اليوم خمس مرات).

هذا النشاط الدائم - نشاط العبادة - من ناحية، ونشاط الرياضة من ناحية أخرى. وهذا القصد فى كل شىء وفى الملذات قبل كل شىء. وهذا السمو عن عبث الأهواء . وهذه الرفعة النفسية التى لا تدانيها رفعة. وهذا الاتصال الدائم بالحياة وبالكون فى خير صور الحياة وأدق أسرار الكون.

هذا كله يجنب صاحبه المرض، ويجعل الصحة عظيم حظه. فإذا كان سليم التكوين، قوى الخلق - كما كان رسول الله ﷺ - جفاه المرض ولم يعرف إليه سبيلاً.

فإذا مرض كان طبيعيًا أن يخاف محبوه وأصحابه وكان طبيعيًا أن

يخافوا وهـم قد رأوا ما عاناه من مـصاعب الحياة خلال ثـلاث وعشرين سنة متتـابعة، لاقى فيهـا من الشدائد ما تنوء الجبال عن حـمله فى شتى سـبل الحيـاة. وأى مـوقف أشد من مـوقـفه (يوم أحـد) . . حين ولى المسلمـون وسار وهو يصـعد الجـبل ورجال قـريش يشتـدون فى تتبـعه ويرمونه، حتى كسرت رباعيته.

وأى موقف أشـد هولا من موقعة (يـوم حنين) حين ولى المسلمون فى عمـاية الصبـح مولية الأدبـار وهو ينادى فى المسلمين (إلى أين . . ؟ إلى أين . . ؟ إلىّ . . . إلىّ. . .) حتى عادوا وحتى انتصروا.

وأى مجـهود أشق من مـجهـود الرسالة والوحى، وهذا المجـهود الروحى المضنى فى اتصالـه بسر الكون والملأ الأعلى ؟ **﴿يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليـلاً . نصفه أو انقـص منه قليلاً . أو زد عليـه ورتل القرآن ترتيلاً . إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً . إن ناشئة الليل هى أشد وطئًا وأقوم قيلاً ﴾**(1).

وهذا المجهود فى تلقى أوامر الله والـذى روى بسببه عن النبى ﷺ أنه قال: (شيبتنى هود وأخواتها) . . قيل: ومـا شيبك فيهما قال : قوله تعالى **﴿فاسـتقم كمـا أمرت ومن تاب معك ولا تطغـوا . إنه بما تعملون بصير﴾**(2).

رأى أصحاب رسـول الله ﷺ هذا كله، ورأوه يحمل العبء صلبا قويًا، لا يعرف المرض إليه طريقًا فإذا مرض بعد ذلك: فمن حق أصحابه أن يخافوا وأن يتمهلوا فى السير من معسكرهم (بالجرف) إلى الشام حتى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله فى نبيه ورسوله ﷺ.

وهذا حادث وقع جعلهم أشد خوفًا: فـقد استيقظ رسول الله ﷺ أول ما بدأ يشكو وطال أرقه وحدثتـه نفسه أن يخرج فى ليل تلك الأيام

---

(1) سورة المزمل الآيات [1:6].

(2) سورة هود الآية 112.

الرقيقة النسيم فيما حول المدينة . . وخرج ولم يستصحب معه أحدًا إلا مولاه (أبا مويهبة) .

أفتدرى أين ذهب؟

ذهب إلى (بقيع الغرقد) حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة فلما وقف بين المقابر قال يخاطب أهلها:(هنيئًا لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه أقبلت الفتن تقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها والآخرة شر من الأولى).

وقد حدث «أبو مويهبة» أن النبى ﷺ قال له أول ما بلغا (بقيع الغرقد): (إنى أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع . . فانطلق) فلما استغفر لهم وآن له أن يؤوب: أقبل على «أبى مويهبة» فقال له:

(يا أبا مويهبة: إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها، ثم الجنة فخيرت بين ذلك بين لقاء ربى والجنة).

قال أبو مويهبة: بأبى أنت وأمى فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة.

قال سيدنا رسول الله ﷺ: (لا والله يا أبا مو يهبة لقد اخترت لقاء ربى والجنة).

أصبح رسول الله ﷺ فى الغداة، ومر بعائشة -رضى الله عنها- فوجدها تشكو صداعًا فى رأسها وتقول: وارأساه! فقال لها: وقد بدأ يحس ألم المرض: بل أنا والله يا عائشة . . وارأساه!.

لكن شكواه لم يكن قد اشتد إلى الحد الذى يلزمه الفراش أو يحول بينه وبين ما عود أهله وأزواجه من تلطف.

وكررت عائشة - -رضى الله عنها- - الشكوى من صداعها حين سمعته يشكو به فقال لها:(وما لو مت قبلى، فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك)؟ .

وأثارت هذه الملاحظة حب الحياة فى نفس عائشة -رضى الله عنها-

فأجابت: (وليكن ذلك حظ غيرى! والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك: لقد رجعت إلى بيتك فأعرست فيه ببعض نسائك). وتبسم النبى ﷺ.

فلما سكن عنه الألم بعض الشيء: قام بتفقد حال أهله، لكن الألم جعل يعاوده، فتزداد به شدته حتى إذا كان فى بيت أم المؤمنين (ميمونة بنت الحارث) -رضى الله عنها- لم يطق، فغالبه الألم ورأى نفسه فى حاجة إلى تمريض.

هنالك دعا نساءه إليه فى بيت ميمونة واستأذنهن بعد أن رأين حاله أن يمرض فى بيت عائشة وأذن له أزواجه فى الانتقال.. فخرج عاصبًا رأسه يعتمد فى مسيرته على (على بن أبى طالب) -كرم الله وجهه- وعلى عمه (العباس) وقدماه لا تكادان تحملانه حتى دخل بيت (عائشة) -رضى الله عنها- وزادت به الحمى فى الأيام الأولى من مرضه حتى لكان يشعر كأن به منها لهبًا.

لكن ذلك لم يكن يمنعه ساعة تنزل به الحمى من أن يمشى إلى المسجد ليصلى بالناس. وظل على هذا عدة أيام لا يزيد على الصلاة ولا يقوى على محادثة أصحابه ولا خطابهم.

ولما اشتدت عليه الحمى أمر أزواجه أن يصببن عليه بعض قرب الماء.. ففعلن ذلك ثم قام فلبس ثيابه وعصب رأسه وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على أصحاب (أحد) واستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم ثم قال: (أيها الناس أنفذوا بعث «أسامة» فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقًا لها). ثم سكت هنيهة خيم الصمت على الناس أثناءها ثم عاد إلى الحديث فقال: (إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده.. فاختار ما عند الله)!!.

وسكت الرسول ﷺ من جديد، والناس كأنما على رؤوسهم الطير.. ولكن أبا بكر -رضى الله عنه- أدرك أن النبى ﷺ إنما يعنى

بهذه العبارة الأخيرة نفسه، فلم يستطع لرقة وجدانه وعظيم صداقته لرسول الله ﷺ أن يمسك عن البكاء فأجهش وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا!.

وخشى رسول الله ﷺ أن تمتد عدوى التأثر من أبى بكر إلى الناس فأشار إليه قائلاً: (على رسلك!!) ثم قال: (إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده).

ونزل الرسول ﷺ عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشة على أنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال: (يا معشر المهاجرين: استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد وإن كانوا عيبتى «يعنى خاصتى وموضع سرى» التى أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم).

ودخل رسول الله ﷺ بيت عائشة رضى الله عنها. أى مجهود بذل فى هذا اليوم ؟..

إنه الرسول الذى يشغله أكبر الشواغل. جيش «أسامة» .. ومصير الأنصار من بعده.. ومصير هذه الأمة التى ربط الإسلام بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها. لذلك حاول أن يقوم فى غده ليصلى بالناس إماماً كعادته فإذا هو لا يقدر إذ ذاك قال: (مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس). قالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن قال رسول الله ﷺ:

(مروه فليصلِّ بالناس).

فكررت عائشة -رضى الله عنها- وقالت: فلو أمرت عمر؟ فصاح رسول الله ﷺ والمرض يهزه: إنكن صواحب يوسف: مروه فليصلِّ بالناس، وقام أبو بكر فصلى بالناس إماماً !!.

وبلغت بالرسول ﷺ شدة المرض حداً آلمه ذلك أن الحمى زادت به حتى لقد كانت عليه قطيفة فإذا وضع أزواجه وعواده أيديهم من فوقها شعروا بحر هذه الحمى المضنية.

وكانت ابنته فاطمة تعوده كل يوم وكان يحبها .. ذلك الحب الذى يمتلئ به وجود الرجل للابنة الوحيدة الباقية له من كل عقبه... لذلك كانت إذا دخلت على النبى ﷺ قام إليها وقبلها وأجلسها فى مجلسه!!

فلما بلغ منه المرض هذا المبلغ: دخلت عليه فقبلته فقال: (مرحبًا يا ابنتى ..) ثم أجلسها إلى جانبه وأسر إليها حديثًا فبكت ثم أسرَّ إليها حديثا آخر فضحكت.. فسألتها عائشة فى ذلك، فقالت: ما كنت أفشى سر رسول الله ﷺ .. فلما مات ذكرت أنه أسرَّ إليها أنه سيقبض فى مرضه هذا فبكت، ثم أسرَّ إليها أنها أول أهله يلحقه فضحكت!!.

وكانوا لاشتداد الحمى به يضعون إلى جواره إناءً باردًا من ماء بارد، فما يزال يضع يده فيه، ويمسح بها على وجهه ﷺ.

وكانت الحمى تصل به حتى يغشى عليه أحيانًا ثم يفيق وهو يعانى منها أشد الكرب.. حتى قالت فاطمة يومًا وقد هز الألم نفسها لشدة ألم أبيها .. واكرب أبتاه!

فقال: (لا كرب على أبيك بعد اليوم)!

يريد أنه سينتقل من هذا العالم: عالم الأسى والألم إلى الرفيق الأعلى من الجنة.

وتناقل الناس ما بلغ من اشتداد المرض بالنبى ﷺ حتى هبط «أسامة» وهبط الناس معه من (الجرف) إلى المدينة ودخل أسامة على النبى ﷺ فى بيت عائشة -رضى الله عنها- فإذا هو قد أصمت فلا يتكلم، فلما أبصر أسامة جعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة علامة الدعاء له.

المال الذى تركه النبى ﷺ: ومما أثر عنه ﷺ أنه كان فى بيته سبعة

دنانير أول ما اشتد به المرض خاف أن يقبضه الله إليه وما تزال باقية عنده . . فأمر أهله أن يتصدقوا بها. . لكن اشتغالهم بتمريضه والقيام على خدمته واطراد المرض فى شدته أنساهم تنفيذ أمره.

فلما أفاق يوم الأحد الذى سبق وفاته من إغمائه سألهم: مافعلوا بها؟ فأجابت عائشة: إنها ما تزال عندها فطلب إليها أن تحضرها. ووضعها فى كفه ثم قال: ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه ؟!! ثم تصدق بها جميعًا على فقراء المسلمين. وقضى رسول الله ﷺ ليله هادئا مطمئنًا نزلت عنه الحمى.

وبلغ من ذلك أن استطاع أن يخرج ساعة الصبح إلى المسجد عاصبًا رأسه معتمدًا على (على بن أبى طالب) و(الفضل بن العباس) -رضى الله عنهما-.

وكان أبو بكر ساعتئذ يصلى بالناس. فلما رأى المسلمون النبى ﷺ وهم فى صلاتهم قد خرج إليهم: كادوا يفتتنون فرحًا به فتفرجوا (أى وسّعوا). . فأشار إليهم أن يثبتوا على صلاتهم. وسر رسول الله ﷺ بما رأى من ذلك أكبر سرور واغتبط له أعظم الغبطة.

وأحس أبو بكر -رضى الله عنه- بما صنع الناس وأيقن أنهم لم يفعلوه إلا لرسول الله ﷺ فنكص عن مصلاه يريد أن يتخلى لرسول الله ﷺ عن مكانه. فدفعه الرسول ﷺ وقال له: (صلِّ بالناس) وجلس هو إلى جنب أبى بكر -رضى الله عنه- فصلى قاعدًا عن يمينه.

فلما فرغ من صلاته: أقبل على الناس رافعًا صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد فقال: (أيها الناس: سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم وإنى والله ما تمسكون على بشىء: إنى والله لم أحل إلا ما أحل القرآن ولا أحرم إلا ما حرم القرآن لعن الله قومًا اتخذوا قبورهم مساجد).

ولقد عظم فرح المسلمين بما رأوا من مظاهر التقدم فى صحة النبى

ﷺ حتى أقبل عليه أسامة بن زيد يستأذن فى مسيرة الجيش إلى الشام حتى مثل بين يديه أبو بكر قائلاً: يا نبى الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب واليوم يوم (بنت خارجة) يعنى زوجته، أفآتيها؟ فأذن له النبى ﷺ فى ذلك. وانطلق أبو بكر إلى السنح (مكان بأطراف المدينة) حيث تقيم زوجه وانصرف عمر وعلى لشئونهما، وتفرق المسلمون، وكلهم سعيد مستبشر بعد أن كانوا إلى أمس عابسين مغمومين لما يتصل لهم من أخبار النبى ﷺ ومرضه واشتداد الحمى به وإغمائه.

وعاد هو إلى بيت عائشة والسرور لرؤية هؤلاء المسلمين الذين قد امتلأ بهم المسجد يفعم قلبه وإن كان يحس جسمه ضعيفًا غاية الضعف بينما عائشة تنظر إلى هذا الرجل العظيم الذى يمتلئ قلبها إكبارًا له وإجلالاً وقد ملكها الإشفاق لترد إليه القوة والحياة!!.

لكن خروج النبى ﷺ إلى المسجد لم يكن إلا الصحو الذى يسبق الموت.. فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت فى كل لحظة ضعفًا وكان يرى الموت يدنو ولم يبق لديه ريب فى أنه لم يبق له فى الحياة إلا سويعات.

تقول أرجح الروايات: إنه ﷺ دعا فى هذا اليوم القائظ من أيام شبه الجزيرة العربية بإناء فيه ماء بارد كان يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه، وإن رجلاً من آل أبى بكر -رضى الله عنه- دخل على عائشة -رضوان الله عليها- وفى يده سواك فنظر إليه رسول الله ﷺ نظرًا دل على أنه يريده فأخذته أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- من هذا الرجل ومضغته له حتى لان وأعطته إياه فاستن به.

وإنه لما شق عليه النزع: توجه إلى الله يدعوه: (اللهم أعنى على سكرات الموت)!! قالت عائشة -رضى الله عنها- وكان رأس النبى ﷺ وسلم فى هذه الساعة فى حجرها: (وجدت رأس رسول الله ﷺ يثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول:

(بل الرفيق الأعلى من الجنة) قلت: خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق)!!.

وقبض رسول الله ﷺ:

دفن الرسول ﷺ اختار الرسول ﷺ الرفيق الأعلى، وفوجئ المسلمون بهذا النبأ الأليم وهم بالمسجد فقد رأوه ﷺ فى الصباح وكل شىء يدل على أنه عوفى.. مما جعل أبا بكر يذهب إلى زوجه (بنت خارجة) بالسنح! لذلك أسرع عمر -رضى الله عنه- إلى حيث كان جثمان النبى ﷺ وهو لا يصدق أنه مات .. ذهب فكشف عن وجهه ﷺ فألفاه لا حراك به فحسبه فى غيبوبة لابد أن يفيق منها.

وعبثًا حاول (المغيرة بن شعبة) إقناعه بالحقيقة الأليمة.. فقد ظل مؤمنًا بأن رسول الله ﷺ لم يمت فلما ألح (المغيرة) عليه قال له عمر: كذبت!! وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح: أن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران.. فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل إنه مات والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى عليه السلام فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه قد مات.

واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر -رضى الله عنه- يرسل الواحدة تلو الأخرى، وهم فى حال أشبه شىء بالذهول.. ألا إن كان محمد قد مات حقًا! فواحر قلباه! وياللهم الناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له وآمنوا بالله الذى بعثه بالهدى ودين الحق.. هم يذهل القلب ويذهب باللب.

أما إن كان محمد قد ذهب إلى ربه كما يقول عمر - فذلك أدعى للذهول.. وانتظار أوبته حتى يرجع كما رجع موسى: أشد إمعانًا فى العجب!!.

لذلك أحاطت جموعهم بعمر -رضى الله عنه- وهم أدنى إلى

تصديقه وإلى الإيمان بأن رسول الله ﷺ لم يمت!!

فكيف يموت وقد كان معهم منذ ساعات يرونه ويسمعون إلى صوته الجهورى وإلى دعائه واستغفاره؟ وكيف يموت وهو خليل الله الذى اصطفاه لتبليغ رسالته وقد دانت له العرب كلها وبقى أن يدين له (كسرى) وأن يدين له (هرقل) بالإسلام؟!!.

وكيف يموت وهو هذه القوة التى هزت العالم مدى عشرين سنة متوالية وأحدثت فيه أعنف ثورة روحية عرفها التاريخ.

النساء هناك مازلن يبكين علامة أنه مات وعمر -رضى الله عنه- ههنا بالمسجد ما فتئ ينادى بأنه لم يمت وبأنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وبأن الذين يقولون بموته: إنما هم المنافقون .. هؤلاء المنافقون الذين سيضرب محمد ﷺ على أيديهم وأعناقهم بعد رجعته !!.

أى الأمرين يصدق المسلمون؟

لقد أخذهم الفزع أول الأمر ثم مازالت بهم أقوال عمر -رضى الله عنه- تبعث إلى نفوسهم الأمل برجعة النبى ﷺ حتى كادوا يصدقون أمانيهم ويصورون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون إليها.

وإنهم لكذلك: إذ أقبل أبو بكر آتيًا من (السنح) وقد بلغه الخبر الفادح وبصر بالمسلمين وبعمر يخطبهم.. فلم يقف طويلا ولم يلتفت إلى شىء، بل قصد إلى بيت عائشة -رضى الله عنها- فاستأذن فدخل فألفى النبى ﷺ مسجًّى فى ناحية من البيت عليه برد حبرة فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبله وقال: ما أطيبك حيًّا.. وما أطيبك ميتًا..!!

ثم إنه أخذ رأس النبى ﷺ وسلم بين يديه وحدق فى معارف وجهه وقال: (بأبى أنت وأمى! أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا).

ثم أعاد الرأس الشـريف إلى الوسادة ورد البرد على وجهـه وخرج وعمـر ما يزال يكلم الناس ويقـنعهم بأن رسول الله ﷺ لـم يمت وفسح الناس لأبى بكر -رضى الله عنه- طريقًا..

فلما دنا من عـمر ناداه: على رسلك يا عـمر! أنصت! لكن عـمر أبى أن يسكت أو ينصت واستمـر يتكلم فأقبل أبو بكر -رضى الله عنه- على الناس وأشـار إليهم بأنه يكـلمهم... ومن.. كـأبى بكر فى هذا المقام؟.. أليس هو الصـديق صفى النبى ﷺ ومن لو اتخـذ النبى خليلاً غير ربه لاتخذه خليلاً.

لذلك أسرع الـناس إلى تلبية دعـوته وانصرفـوا إليه عن عـمر.. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(أيها الناس: من كان يعبـد محمدًا فإن محمـدًا قد مات ومن كان يعبد الله فـإن الله حى لا يموت). ثم تلا قوله تعالى: **﴿وما محمد إلا رسول قـد خلت من قبله الرسل أفإن مـات أو قتل انقلبتم على أعـقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزى الله الشاكرين﴾**[1].

وكان عـمر -رضى الله عنه- قد أنصـت حين رأى انصراف الناس إلى أبى بكر.

فلمـا سمع أبا بكر يتلو هذه الآية: خـر إلى الأرض.. ما تحـمله رجلاه موقنًا أن رسـول الله ﷺ قد مات.. وأما الناس فـقد أخذوا من قبل بأقوال عمر -رضى الله عنه- حتى لقـد ألفوا أنفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها أبو بكر كأنهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت.. وكذلك زايل القلوب كل شىء فى أن محمدًا قـد اختار جوار الرفيق الأعلى، وأن الله قد قبضه إليه!!. أفكان عمـر غاليًا حين اقتنع بأن محمدًا لم يمت وحين دعا الناس إلى مثل اقتناعه؟..

كـلا!..

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

فإن المصاب الفادح والخطب الجسيم قد استولى على جنبات نفسه وملك عليه فؤاده. . إنه الرجل الذى عاش فى كنف محمد ﷺ وظله. . إنه الرجل الذى كان قبل الإسلام جبار الجاهلية فأصبح بعد الهداية عملاق الإسلام!.

إنه فقد ذلك القلب الكبير الذى أفاض عليه من هداه وإرشاده وتوجيهه وتعليمه ما جعل منه (عمر بن الخطاب) الذى وقف يوم الهجرة بعدما طاف بالبيت يخاطب الملأ من قريش ويقول:

من أراد أن تثكله أمه أو ييتم ولده أو ترمل زوجه فليتبعنى وراء هذا الوادى . . فلم يتبعه أحد. . إنه عمر الذى كان لا يطيق مرور نسمة تؤذى رسول الله ﷺ إلا ويصيح بصوته القوى:

يا رسول الله: مرنى بقتل هذا المنافق!!

فما بالك . . ينظر حواليه: فلا يرى الرسول بجانبه وينظر فوقه فيرى النجوم قد خر من بينها البدر.

إذن . . . فلا لوم، لأن عمر قد غشيته غاشية من هول المصاب. وهكذا لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى. وقد صدق رب العزة حيث يقول له : **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد.. أفإن مت فهم الخالدون. كل نفس ذائقة الموت . ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾**[1].

وقد صدق الله تعالى إذ يقول له:

﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾[2].

فيا أخا الإسلام

لا خلود لأحد على هذه الأرض.

جدد السفينة . . فإن البحر عميق.

وأكثر الزاد . . فإن السفر طويل.

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان [٣٤ ، ٣٥]. (٢) سورة الزمر الآية ٣٠.

وأخلص العمل . . فإن الناقد بصير.
وخفف الحمل . . فإن العقبة كئود.
لقد مات خير خلق الله وصفوته من عباده وإنا به لاحقون فأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة.
لقد انتقل سيد المرسلين صلوات أبى وسلامه عليه إلى دار الحق.
واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها.
واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها.
واعمل للجنة بقدر اشتياقك إليها.
واعمل للنار بقدر صبرك عليها.
واعلم بأن من أراد مؤنسًا: فالله يكفيه.
ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه.
ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه.
ومن أراد واعظًا . . فالموت يكفيه.
ومن لم يكفه شيء من هذا . . فإن النار تكفيه!!.

زيارة القبور

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم. إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾[1].
اعلم أخى أن القبر أول درجات الآخرة.
فعندما يموت العبد فإنه يضع قدمه على عتبة اللانهائية. ومن هنا: يدخل عالم البرزخ.
وعالم البرزخ: محيط أعنف من أن يعجز عبابَه سباحٌ ماهر!!

---

(١) سورة الحج الآيتان [١ ، ٢].

قال جل شأنه: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت.. قال رب ارجعون . لعلي أعمل صالحًا فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها،ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾[1]. والبرزخ هنا: هو الحاجز الزمانى الذى يفصل ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾[2]. هذه الآية الكريمة جمعت الأزمان الثلاثة فى جلال وجمال . . . جمعت الآزال والآماد والآباد!.

﴿يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث .. فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم .. ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم.. ومنكم من يتوفى .. ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة .. فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور﴾[3].

نـــداء القبـــر

أتدرى - يا ابن آدم - ماذا يقول القبر بلسان حاله؟ إنه يناديك ويخاطبك بكلمات ينفطر لها القلب وينخلع من هولها الفؤاد.

روى عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة ، فجلس إلى قبر منها فقال: ما يأتى على هذا القبر يوم إلا وهو ينادى بصوت ذلق طلق: يا ابن آدم: نسيتنى ألم تعلم أنى بيت الوحدة؟ وبيت الغربة؟ وبيت الوحشة؟ وبيت الدود؟ وبيت الضيق؟ إلا

---

(١) سورتا المؤمنون الآيتان [٩٩ ، ١٠٠]. (٢) سورة البقرة الآية ٢٨.

(٣) سورة الحج الآيات [٥ : ٧].

من وسعنى الله عليـه؟ قال رسول الله ﷺ: «القبر إمـا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»- رواه الطبرانى.

ولقد ركز رسول الله ﷺ تركيزًا قويًا على هذه الحقيقة العليا، وهى ذكر الموت، كـما أخبـرنا بذلك عبـد الله بن عمر -رضى الله عـنهمـا- قال:

أتيت النبى ﷺ عاشر عشرة، فقام رجل من الأنصار فقال:

يا نبى الله: من أكيس الناس، وأحـزم الناس؟ قال: أكثـرهـم ذكرًا للموت وأكثرهم استعدادًا للمـوت أولئك الأكياس.. ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» - رواه ابن أبى الدنيا.

وفى رواية ابن ماجه، لفظه: «أن رجلاً قال للنبى ﷺ: أى المؤمنين أفضل؟ قـال: أحسنهم خلقًـا. قال فأى المؤمنين أكـيس؟ قال: أكـثرهـم للموت ذكرًا، وأحسنهم لما بعده استعدادًا.. أولئك هم الأكياس). ولقد قلت لنفسى وأنا بين المقابر:

هل رأيت الأمن والراحة إلا فى الحفائر؟
فأشارت فإذا للدود عبث فى المحاجر
ثم قالت: أيها السائل إنى لست أدرى
انظرى : كيف تساوى الكل فى هذا المكان
وتلاشى فى نفايا العبد رب الصولجان!
والتقى العاش والغالى .. فما يفترقان!
أفهذا منتهى الأمر؟ فقالت: لست أدرى
أيها القبر تكلم وأخبرينى يا رمام.
هل طوى أحلامك الموت وهل مات الغرام
من هو الميت .. من عام .. ومن مليون عام
أتمنى: أننى أدرى: ولكن لست أدرى.

حكمة زيارة القبور

زيارة القبور مستحبة للرجال:

لما رواه أحمـد ومسلم وأصحاب السنن عن عـبد الله بن بريدة عن أبيه: أن النبى ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القـبور فزوروها. فإنها تذكركم الآخرة».

وكان النهى ابتـداء، لأنهم كانوا لا يتورعون فيـه عن هجر الكلام وفحشه فلما دخلوا فى الإسـلام واطمأنوا به وعرفوا أحكامه.. أذن لهم الشـارع بزيارتها. وعن أبـى هريرة -رضى الله عنه-: أن النبى ﷺ زار قبـر أمه فـبكى وأبكى من حوله. فـقال النبى ﷺ: «اسـتأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لى فزوروها فإنها تذكر الموت» - رواه أحمد ومسلم وأهل السنن إلا الترمذى.

صفة الزيارة الشرعية

إذا وصل الزائر إلى القـبر: اسـتقبل وجـه الميت وسلم عليـه ودعا له.. وقـد جاء فى ذلك: عـن بريدة قال: كـان النبى ﷺ يعلمـهم إذا خـرجوا إلى المقـابر أن يقـول قـائلهم: «السلام عـليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شـاء الله بكم لاحقون.. أنتم فـرطنا ونحن بكم تبع ونسأل الله لنا ولكم العافية» - رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

وعن ابن عباس: أن النبى ﷺ مرّ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقـال: «السلام عـليكم يا أهل القبـور.. يغفـر الله لنا ولكم.. أنتم سلفنا ونحن بالأثر» - رواه الترمذى.

وعن عائشـة -رضى الله عنها- قالت: «كان النبى ﷺ كلـما كان ليلتهـا يخرج من آخر الليـل إلى البقيع فـيقول: السـلام عليكم دار قوم مـؤمنين وأتاكـم مـا توعـدون، غـداً مـؤجلـون وإنا إن شـاء الله بكم لاحقون. اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» - رواه مسلم.

وروى عنهـا قالت: قلت: كـيف أقول لهم يا رسـول الله، قال:

«قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».

وأما ما يفعله بعض من لا علم لهم من التمسح بالأضرحة وتقبيلها والطواف حولها، فهو من البدع المنكرة التى يجب اجتنابها ويحرم فعلها.

فإن ذلك خاص بالكعبة. زادها الله شرفًا: ولا يقاس عليها قبر نبى ولا ضريح ولى، الخير كله فى الاتباع والشر كله في الابتداع.

قال ابن القيم:

كان النبى ﷺ إذا زار القبور يزورها للدعاء لأهلها، والترحم عليهم والاستغفار لهم فأبى المشركون إلا دعاء الميت والإقسام على الله به وسؤاله الحوائج والاستعانة به والتوجه إليه.. بعكس هديه ﷺ .. فإنه هدى توحيد، وإحسان إلى الميت، وهدى هؤلاء شرك وإساءة إلى نفوسهم وإلى الميت.

وهم ثلاثة أقسام: إما أن يدعوا للميت، أو يدعو ربه، أو عنده. ويرون أن الدعاء عنده أولى من الدعاء فى المساجد. ومن تأمل هدى رسول الله ﷺ وأصحابه تبين له الفرق بين الأمرين.

ما ينفع الميت من الأعمال

من المتفق عليه أن الميت ينتفع بما كان سببًا فيه من أعمال البر فى حياته: لما رواه مسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد بار يدعو له» - رواه ابن ماجه.

وعنه: أنه ﷺ قال: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمه ونشره، أو ولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أكراه، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته».

وروى مسلم عن جرير بن عبد الله: أن النبى ﷺ قال: «من سن فى الإسلام سنة حسنة: فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم .. ومن سن فى الإسلام سنة سيئة: كان عليه وزرها ووزر من يعمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء».

ما ينفعه من أعمال غيره

- يتساءل العلامة ابن القيم فيقول:

- هل تنتفع أرواح الموتى بشىء من سعى الأحياء .. أم لا؟

ثم يجيب قائلا: إنها تنتفع من سعى الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير.

أحدهما: ما نسب إلى الميت فى حياته.

والثانى: دعاء المسلمين له واستغفارهم له، والصدقة أو الحج!

ويرى الإمام أحمد، ومعه جمهور السلف: وصول الصوم والصلاة، وقراءة القرآن، والذكر.

وقد نص على هذا: الإمام أحمد فى رواية محمد بن يحيى الكحال .. قال:

قيل لأبى عبدالله: الرجل يعمل الشىء من الخير: من صلاة أو صدقة، أو غير ذلك، فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟

قال: (الميت يصل إليه كل شىء: من صدقة أو غيره) وقال أيضًا: اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات و«قل هو الله أحد» وقل: اللهم إن فضله لأهل المقابر.

وهناك آراء أخرى فى هذه المسألة، رأينا الإمساك عن ذكرها.. تيسيرًا على القارئ.

الأدلة على ما سبق

الدليل على انتفاعه بما نسبب إليه فى حياته: ما رواه مسلم فى

صحيحه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». فاستثناء هذه الثلاث من عمله: يدل على أنها منه، فإنه هو الذى تسبب فيها.

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ «إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره أو ولدا صالحا تركه أو مصحفا ورّثه أو مسجداً بناه أو بيتًا لابن السبيل بناه أو نهرًا أكراه أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته».

وفى المسند عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم .. ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من يعمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء».

وقد دل على هذا: قوله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل» فإذا كان هذا فى العذاب والعقاب، ففى الفضل والثواب أولى وأحرى.

ومن الأدلة كذلك: ما نطق به القرآن الكريم وأتت به السنة المطهرة ورآه الإجماع.

أما القرآن:

فقوله تعالى: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾[1]. فأثنى الله سبحانه وتعالى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء: إجماع الأمة على الدعاء له فى صلاة الجنازة.

(١) سورة الحشر الآية ١٠.

وفى السنن:

من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء».

وفى صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك قام النبى ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: «اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله وأوسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار».

وفى السنن أيضًا عن واثلة بن الأسقع قام ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول: اللهم إن فلان بن فلان فى ذمتك وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحق فاغفر له وارحمه إنك أنت الغفور الرحيم».

ومن حديث عثمان بن عفان -رضى الله عنه- قال: كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل». وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما فى صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصين قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون .. نسأل الله لنا ولكم العافية».

وفى صحيح مسلم أن عائشة -رضى الله عنها- سألت النبى ﷺ كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور؟ قال: قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، فيرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون» وفى صحيح مسلم أيضًا عنها -رضوان الله عليها- أن رسول الله ﷺ خرج فى ليلتها من آخر الليل إلى البقيع

فقال: «السـلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعـدون غدا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل الغرقد».

وقد جاء أن الله يرفع درجـة العبد فى الجنة فيـقول: أنى لى هذا؟ فيقال: بدعاء ولدك لك.

وصول ثواب الصدقة

عقد العلامـة ابن القيم -رحمه الله تعالى- فصـلاً فى ذلك فقال:

وأما وصـول ثواب الصدقـة: ففى الصـحيـحين عن عائشـة -رضى الله عنها- أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسـول الله إن أمى افتلتت نفسها ولم توصى وأظنها لو تكلمـت تصدقت، أفلها أجر إن تصـدقت عنها؟ قال: «نعم».

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عباس -رضى الله عنهما- أن سعـد بن عبادة توفـيت أمه وهو غائب عنـها فأتى النبى ﷺ فـقال: يا رسول الله إن أمى توفيت وأنا غائب عنها فهـل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم. قال: فإنى أشهدك أن حائطى المخراف صدقة عنها.

وفى صحيح مـسلم عن أبى هريرة -رضى الله عنه- «أن رجلاً قال للنبى ﷺ: إن أبـى مـات وترك مـالاً، ولم يوص فـهل يـكفى عنه أن أتصدق عنه؟ قال: نعم».

وفى السنن ومسند أحمد عن سعد بن عبادة أنه قال: «يا رسول الله إن أم سعد ماتت فأى الصدقة أفضل؟ قال: الماء».

فحفر بئرًا وقال: هذه لأم سعد.

وعن عبـد الله بن عمـرو أن العاص بن وائل نذر فى الجـاهلية أن ينحر مائة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر خـمسًا وخمسين، وأن عمرًا سأل النـبى ﷺ عن ذلك فقـال: «أما أبوك فلو أقـر بالتوحـيد فـصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك» - رواه الإمام أحمد.

وصول ثواب الصيام

قال العلامة ابن القيم رحمة الله عليه:

وأما الدليل على وصول ثواب الصوم إلى الميت فما روى في الصحيحين عن عائشة -رضى الله عنها- أن رسول ﷺ قال: «من مات وعليه صيام: صام عنه وليه».

وفى الصحيحين أيضًا عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله: أمى ماتت وعليها صوم شهر.. أفأقضيه عنها؟ قال: نعم.. فدين الله أحق أن يقضى».

وفى رواية: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: إن أمى ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: أفرأيت لو كان على أمك دين فقبضته: أكان يؤدى ذلك عنها. قالت: نعم، قال فصومى عن أمك».

وهذا اللفظ للبخارى وحده تعليقًا.

وعن بريدة -رضى الله عنه- قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إنى تصدقت على أمى بجارية، وإنها ماتت فقال: وجب أجرك وردها عليك الميراث فقالت: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال: صومى عنها قالت: إنها لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها» رواه مسلم.

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- «أن امرأة ركبت البحر فنذرت إن الله نجاها أن تصوم شهرا فنجاها الله، فلم تصم حتى ماتت فجاءت بنتها أو أختها إلى رسول الله ﷺ فأمرها أن تصوم عنها» - رواه أهل السنن والإمام أحمد.

وكذلك روى عنه ﷺ وصول ثواب بدل الصوم وهو الإطعام:

ففى السنن: عن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال: قال رسول ﷺ «من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه لكل يوم مسكين» - رواه الترمذى.

قال الترمذى: ولا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، والصحيح عن ابن عمر من قوله موقوفًا.

وفى سنن أبى دواد عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «إذا مرض الرجل فى رمضان ولم يصم أطعم عنه ولم يكن عنه قضاء وإن نذر: قضى عنه وليه».

وصول ثواب الحج

قال العلامة ابن القيم رحمة الله عليه:

وأما وصول ثواب الحج: ففى صحيح البخارى عن ابن عباس -رضى الله عنهما- «أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها.

أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالقضاء».

وقد تقدم حديث بريدة وفيه: «إن أمى لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها».

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «إن امرأة سنان بن مسلمة الجهنى سألت رسول الله ﷺ أن أمها ماتت ولم تحج أفيجزئ أن تحج عنها؟ قال: نعم. لو كان على أمها دين فقضته عنها ألم يكن يجزئ عنها» رواه النسائى.

وروى أيضًا عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أن «امرأة سألت النبى ﷺ عن ابنها مات ولم يحج قال: (حجى عن ابنك).

وروى أيضًا عنه قال: «قال رجل يا نبى الله إن أبى مات ولم يحج أفأحج عنه؟ قال: أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه؟ قال: نعم قال: فدين الله أحق».

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمته، ولو كان من أجنبى أو من غير تركته.

وقد دل عليه حديث أبى قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت فلما قضاهما قال له النبى ﷺ الآن بردت عليه جلدته».

سـؤال القبـر

اتفق أهل السنة والجماعة: على أن كل إنسان يسأل بعد موته: قبر أم لم يقبر . .

فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادًا ونسف فى الهواء أو غرق فى البحر: ليسئل عن أعماله وجوزى بالخير: خيرًا، وبالشر: شرًا.

وأن النعيم أو العذاب على النفس والبدن معًا . . قال ابن القيم: ذهب سلف الأمة وأئمتها إلى أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب وإن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا ويحصل له معها النعيم أو العذاب.

ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى: أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين وتعاد الأبدان» متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى وقال المروزى: قال أبو عبد الله - يعنى الإمام أحمد - عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل.

وقال حنبل: قلت لأبى عبد الله: فى عذاب القبر؟

فقال: هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها . . كلما جاء عن النبى ﷺ إسناد جيد أقررنا به إذا لم نقر بما جاء به رسول الله ﷺ ودفعناه ورددناه: رددنا على الله أمره . . قال تعالى **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾**[1].

قلت له: وعذاب القبر حق؟ قال: حق . . . يعذبون فى القبور.

قال: وسمعت أبا عبدالله يقول: نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير

(1) سورة الحشر الآية ٧.

وأن العبد يسأل فى قبره . . . قال تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾[1] . . . فى القبر.

وقال أحمد بن القاسم: قلت: يا أبا عبدالله: تقر بمنكر ونكير وما يروى فى عذاب القبر؟ فقال: سبحان الله . . نعم . . نقر بذلك ونقر له.

قلت: هذه اللفظة تقول: منكر ونكير هكذا؟ أو تقول: ملكين؟

قال: منكر ونكير.

قلت يقولون: ليس فى حديث منكر ونكير.

قال: هو هكذا يعنى أنهما منكر ونكير.

ثم يطرح العلامة ابن القيم فى هذه القضية سؤالاً يقول فيه:

هل تعاد الروح إلى الميت فى قبره وقت السؤال أم لا؟

ويجيب قائلا: فقد كفانا رسول الله ﷺ أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس حيث صرح بإعادة الروح إليه: فقد قال البراء بن عازب.

كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا النبى ﷺ فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وهو يلحد له فقال: «أعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات ثم قال: «إن العبد إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا: نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة: أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من (فى) السقاء - أى فمه - فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال: فيصعدون بها فلا يمرون بها - يعنى على ملأ من الملائكة - إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان - بأحسن أسمائه التى كانوا

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧.

يسمونه فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيـا فيستفتحون له فيفتح له فيشـيعه من كل سماء مقـربوها إلى السماء التى تليها حـتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله تعالى فيقـول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيـدوه إلى الأرض فإنى منها خلقـتهم ومنها أعيـدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى.

قال: فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول ربى الله فيقولان له ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله فيقولان له: وما علمك بهذا؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت.

فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابًا من الجنة.

قال: فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره.

قال: ويأتيه رجل حـسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فـيقول: أبشر بالذى يسرّك . . هذا يومك الذى كنت توعـد فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجىء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعـة حتى أرجع إلى أهلى، قـال: وإن العبد الكافـر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقـبال من الآخرة: نزل إليـه من السماء مـلائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة: اخرجى إلى سخط من الله وغضب. .

قال: فيـتفرق فى جـسده فينتزعـها كما ينتـزع السنود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخـذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جـيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الريح الخبيث؟ فيـقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه الـتى كان يسمى بها فى

الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط﴾**(١).

فيقول الله عز وجل «اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى» فتطرح روحه طرحًا ثم قرأ **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق﴾**(٢).

فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيقولان له: من ربك؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابًا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذى يسؤك هذا يومك الذى كنت توعد.

فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول: رب لا تقم الساعة»

رواه الإمام أحمد وأبو داود.

اللهم أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

نصوص نبوية صحيحة

وهذه مجموعة من الأحاديث النبوية الصحيحة نستشهد بها على صحة ما ذكرناه:

روى مسلم عن زيد بن ثابت قال: بينا رسول الله ﷺ فى حائط (الحائط هو البستان) لبنى النجار على بغلته ونحن معه إذ جادت به فكادت تلقيه، فإذا قبر ستة أو خمسة أو أربعة . . فقال: من يعرف أصحاب هذه القبور؟ فقال رجل : أنا. قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال:

---

(١) سورة الأعراف الآية ٤٠. (٢) سورة الحج الآية ٣١.

مات فى الأشراط. فقال: إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها... فلولا أن لا تدافنوا: لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر: الذى أسمع منه.

ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار. قالوا نعوذ بالله من عذاب النار. قال: تعوذوا بالله من عذاب القبر. قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر. قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال».

وروى البخارى ومسلم عن قتادة عن أنس أن النبى ﷺ قال: إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم: أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ.

فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله.

قال: فيقولان: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة.. فيراهما جميعًا.

وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس فيقولان: لا دريت ولاتليت.. ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة فيسمعها من يليه غير الثقلين. (ومعنى لا دريت .. ولا تليت): أى لا كنت داريًا ولا تاليًا.. والمقصود بها الدعاء عليه) .

وروى البخارى ومسلم وأصحاب السنن عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل فى قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله: فذلك قول الله **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾**[1] .

وفى لفظ: نزلت فى عذاب القبر: يقال له من ربك؟ فيقول: الله ربى ومحمد نبى فذلك قول الله **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾**[1] .

---

(١) سورة إبراهم الآية ٢٧.

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح أبى حاتم أن النبى ﷺ قال:

«إن الميت إذا وضع فى قبره: إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات «من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان» عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلى مدخل ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام: ما قبلى مدخل. ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة: ما قبلى مدخل. ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان: ما قبلى مدخل. فيقال: له اجلس. فيجلس وقد مثلت له الشمس وقد أخذت للغروب فيقال له: هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول؟ دعونى حتى أصلى فيقولان: إنك ستصلى أخبرنا عما نسألك عنه؟ أرأيتك هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه؟ وما تشهد عليه؟ فيقول: محمد أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله فيقولان له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورا ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعًا وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدئ منه وتجعل نسمته فى النسيم الطيب وهى طير معلق فى شجر الجنة.. قال: فذلك قول الله تعالى ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**﴾[1].. وذكر فى الكافر ضد ذلك إلى أن قال:

«ثم يضيق عليه فى قبره إلى أن تختلف أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التى قال الله تعالى: ﴿**فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾[2].

وفى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال: «كان النبى ﷺ

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧. (٢) سورة طه الآية ١٢٤.

إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال: فإن رأى أحد رؤيا قصها فيقول: ما شاء الله.. فسألنا يومًا فقال: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قلنا: لا. قال: لكنى رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخذا بيدى وأخرجانى إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله فى شدقه حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله قلت ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فهر فيشدخ بها رأسه فإذا ضربه تدهده الحجر فانطلق إليه ليأخذ فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا إلى نقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم فإذا اقترب: ارتفعوا حتى كادوا يخرجون فإذا خمدت: رجعوا فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذى فى النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه (أى فمه) فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج: رمى فى فيه بحجر فرجع كما كان فقلت ما هذا ؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفى أصلها شيخ وصبيان وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا إلى الشجرة وأدخلانى دارًا لم أر قط أحسن منها.. فيها شيوخ وشبان ثم صعدا بى فأدخلانى دارا هى أحسن وأفضل قلت: طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت؟ قالا: نعم: الذى رأيته يشق شدقه: كذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة. والذى رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة. وأما الذى رأيته فى النقب: فهم الزناة. والذى رأيته فى النهر: فآكل الربا.

فأما الشيخ الذي فى أصل الشجرة: فإبراهيم والصبيان حوله: فأولاد الناس.

والذى يوقد النار: فمالك خازن النار.

والدار الأولى: دار عامة المؤمنين . وأما هذه الدار فدار الشهداء.. وأنا جبريل وهذا ميكائيل فارفع رأسك.. فرفعت رأسى فإذا قصر مثل السحابة قالا: ذلك منزلك قلت: دعانى أدخل منزلى. قالا: إنه بقى لك عمر لم تستكمله فلو استكملته: أتيت منزلك»

قال ابن القيم: وهذا نص فى عذاب البرزخ فإن رؤيا الأنبياء وحى ومطابق لما فى نفس الأمر.

وروى الطحاوى عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «أمر بعبد من عباد الله أن يضرب فى قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة فامتلأ قبره عليه نارًا فلما ارتفع عنه أفاق. قال: علام جلدتمونى؟ قالوا: إنك صليت بغير طهور، ومررت على مظلوم فلم تنصره» وعن أنس أن النبى ﷺ سمع صوتًا من قبر فقال:

متى مات هذا؟ فقالوا: مات فى الجاهلية فسر بذلك وقال: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر» رواه النسائى ومسلم.

وعن ابن عمر -رضى الله عنهما- عن النبى ﷺ قال: «هذا الذى تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة... لقد ضم ضمة ثم فرج عنه» - رواه البخارى ومسلم والنسائى.

﴿تعليق﴾

إذا سأل سائل ما الحكمة فى كون عذاب القبر لم يذكر فى القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟

أجاب على ذلك العلامة ابن القيم فقال: الجواب من وجهين: مجمل ومفصل.

أما المجمل: فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما، وهما: الكتاب والحكمة..

قال تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم﴾[1]

قال تعالى: ﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتابه والحكمة﴾[2]. وقال تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾[3].

والكتاب: هو القرآن.

والحكمة: هى السنة باتفاق السلف.

وما أخبر به الرسول عن الله: فهو فى وجوب تصديقه والإيمان به.. كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله..

هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم.

وقد قال النبى ﷺ «إنى أوتيت الكتاب ومثله معه».

وأما الجواب المفصل: فهو أن نعيم البرزخ وعذابه مذكوران فى القرآن فى غير موضع .. فمنها قوله تعالى ﴿ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم.. اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾[4].

وهذا خطاب لهم عند الموت.

وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: اليوم تجزون ومنها قوله تعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشيًا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾[5].

(١) سورة النساء الآية ١١٣.
(٢) سورة الجمعة الآية ٢.
(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٤.
(٤) سورة الأنعام الآية ٢.
(٥) سورة غافر الآيات [٤٥ ، ٤٦].

فذكر عذاب الدارين ذكرًا صريحًا .. لا يحتمل الشك. ومنها قوله تعالى: **﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون. يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئًا ولا هم ينصرون وإن للذين ظلموا عذابًا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾**[1].

وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره فى الدنيا وأن يراد به عذابهم فى البرزخ وهو أظهر، لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب فى الدنيا.

وقد يقال وهو أظهر أن من مات منهم.. عذب فى البرزخ ومن بقى منهم.. عذب فى الدنيا بالقتل وغيره فهو وعيد بعذابهم فى الدنيا وفى البرزخ. ومنها قوله تعالى: **﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾**[2].

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبدالله بن عباس على عذاب القبر. وفى الاحتجاج بها شىء؛ لأن هذا عذاب الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن.

لكن من فقهه فى القرآن ودقة فهمه فيه: فهم منها عذاب القبر.. فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين: أدنى وأكبر. فأخبر أن يذيقهم بعض «**الأدنى**» ليرجعوا.. فدلّ على أنه بقى لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ولهذا قال: «**من العذاب الأدنى**» ولم يقل «**ولنذيقنهم من العذاب الأدنى**».

فلنتأمل ذلك جيدًا.. ونظيره قول النبى ﷺ: «فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها» ولم يقل: فيأتيه حرها وسمومها فإن الذى وصل إليه: بعض ذلك وبقى له أكثره.. والذى ذاقه أعداء الله فى

---

(١) سورة الطور الآيات [٤٥ : ٤٧]   (٢) سورة السجدة الآية ٢١.

الدنيا بعض العذاب وبقى لهم: ما هو أعظم.

ومنها قوله تعالى: **﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، فلولا إن كنتم غير مدينين، ترجعونها إن كنتم صادقين، فأما إن كان من المقربين، فروح وريحان وجنة نعيم، وأما إن من كان أصحاب اليمين، فسلام لك من أصحاب اليمين، وأما ان كان من المكذبين الضالين، فنزل من حميم، وتصلية جحيم، إن هذا لهو حق اليقين، فسبح باسم ربك العظيم﴾**(١)

فذكر ههنا: أحكام الأرواح عن الموت وذكر فى أول السورة: أحكامها يوم المعاد الأكبر. وتقديم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية.. إذ هى أهم وأولى بالذكر وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم فى الآخرة ثلاثة أقسام. ومنها قوله تعالى: **﴿يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضية مرضية، فادخلى فى عبادى، وادخلى جنتى﴾**(٢)..

وقد اختلف السلف: متى يقال لها ذلك؟

فقالت طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ: مع هؤلاء فإنه خطاب للنفس التى قد تجردت عن البدن وخرجت منه.

وقد فسر ذلك النبى ﷺ بقوله فى حديث البراء وغيره فيقال لها: (اخرجى راضية مرضيًا عنك) وقوله تعالى: **﴿فادخلى فى عبادى﴾** مطابق لقوله ﷺ «اللهم الرفيق الأعلى». وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دل عليه القرآن.

أسباب عذاب القبر

قال العلامة ابن القيم:

ذلك راجع إلى سببين:

مجمل ومفصل:

---

(١) سورة الواقعة الآيات [٨٣ : ٩٦].

(٢) سورة الفجر الآيات [٢٧ : ٣٠].

أما المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه فلا يعذب الله روحا عرفته وأحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه ولا بدنا كانت فيه أبدا فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة: أثر غضب الله وسخطه على عبده فمن أغضب الله وأسخطه فى هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك. كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه: فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب.

وأما المفصل: فقد أخبر النبى ﷺ عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان فى قبورهما يمشى أحدهما بالنميمة بين الناس ويترك الآخر الاستبراء من البول.

فهذا ترك الطهارة الواجبة، وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقا وفى هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة: بالكذب والزور والبهتان: أعظم عذابًا كما أن فى ترك الاستبراء من البول تنبيها على أن من ترك الصلاة التى الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها فهو أشد عذابًا وفى حديث شعبة (أما أحدهما: فكان يأكل لحوم الناس فهذا مغتاب وذلك نمام).

وقد تقدم حديث ابن مسعود -رضى الله عنه- فى الذى ضرب سوطًا امتلأ القبر عليه به نارًا لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور ومر على مظلوم فلم ينصره، وقد جاء فى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال: (كان النبى ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا . . .؟ والحديث: مذكور بطوله فيما مضى فليرجع إليه من شاء ومما سبق يتبين أن عذاب القبر يكون عن معاصى القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله:

فالنمام والكذاب والمغتاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والموضع فى الفتنة والداعى إلى البدعة والقائل على الله ورسوله ما لا علم له به والمجازف فى كلامه وآكل الربا وآخذه ومعطيه وكاتبه وشاهده وآكل أموال اليتامى وآكل السحت من الرشوة والبرطيل (الرشوة) ونحوهما وآكل

مال أخيه المسلم بغير حق أو مال المعاهد وشارب المسكر وآكل لقمة الشجرة الملعونة والزانى واللوطى والسارق والخائن والغادر والمخادع والماكر والمحلل والمحلل له والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه ومؤذى المسلمين ومتتبع عوراتهم والحاكم بغير ما أنزل الله والمفتى بغير ما شرعه الله والمعين على الإثم والعدوان وقاتل النفس التى حرم الله والملحد فى حرم الله والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله ﷺ والنائحة والمستمع إليها ونواحو جهنم وهم المغنون الغناء الذى حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والسرج والمطففون فى استيفاء مالهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا بذلوه والجبارون والمتكبرون والمراؤون والهمازون واللمازون والطاعنون على السلف والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم والذى إذا خوفته بالله وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر فإذا خوفته بمخلوق مثله: خاف وارعوى وكف عما هو فيه والذى يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدى ولا يرفع به رأسًا فإذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطئ: عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه والذى يقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه وربما استثقل به فإذا سمع قرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق: طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعي الطرب وود أن المغنى لا يسكت والذى يحلف بالله ويكذب فإذا حلف بالبندق أو برئ من شيخه أو قريبه أو سراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين: لم يكذب ولو هدد وعوقب والذى يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين إخوانه وإضرابه - وهو المجاهر والذى لا تأمنه على مالك وحرمتك - والفاحش اللسان البذىء الذى تركه الخلق تقاء شره وفحشه والذى يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها نقرًا ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً ولا يؤدى زكاة ماله طيبة بها نفسه ولا يحج مع قدرته على الحج ولا يؤدى ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها

ولايتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا خطوة ولا يبالى بما حصل من المال من حلال أو حـرام ولا يصل رحمـه ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ويرائى العالمين ويمنع الماعـون ويتشغل بعـيوب الناس عن عيـبه وبذنوبهم عن ذنبه.

كل هؤلاء وأمـثالهم: يعـذبون فى قبورهـم بهذه الجرائم بـحسب كثرتها وقلتها وصغيرها وكبيرها.

ولما كان أكـثر الناس كـذلك: كان أكثـر أصحاب القـبور مـعذبين والفائز منهم قليل.

فظواهر القبور: تراب وبواطنها حـسرات وعذاب ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبينات وفى باطنها الدواهى والبليات.

تغلى بالحسرات كما تغلى القدور بما فيها ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها. تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالا ونادت: يا عمار الدنيا: لقد عمرتم دارًا موشكة بكم زوالاً.

وخربتم دارًا أنتم مسرعون إليها انتقالاً.

عمرتم بيوتًا لغيركم : منافعها وسكناها.

وخربتم بيوتًا ليس لكم مساكن سواها.

هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال وبذر الزرع وهذه محل للعبر: رياض من رياض الجنة أوحفر من حفر النار!

فضل القرآن ومدارسته

اعلم - وفقنى الله وإياك - أن حـرص العبد فى الدنيـا على قراءة القرآن ومدارسته وحفظه وتلاوته: خيرما ينور له قبره ويفسح له فيه.

يقول الإمام الشاطبى رحمه الله فى هذا المعنى:

وخيـر جليـس لا يمل حديثه

ترداده يزداد فيه تجمـلا

وحيث الفتى يرتاع فى ظلمـــاته
من القبر يلقاه ســـنا متهـــــللا
هنالك يهنيه مقبـلا وروضـــــة
ومن أجله فى ذروة العـــز يجتلى
يناشـــد فى إرضـــائه لحبيبه
وأجدر به سؤلا إليه موصـــــلا
فيا أيها القـــارى به متمســكـا
مجلا له فى كل حال مبجـــلا
هنيئا مريئا والداك عليهمــــــا
ملابس أنوار من التاج والحلى!

يرحم الشاطبى وجزاه الله عن القرآن خيراً.

فضـل القـــرآن
وحافـــظ القـــرآن

وها نحن أولاً: نذكر نصـوصًا تبين لنا فضل القرآن على أصـحابه العاملين به المستمسكين بهديه السالكين على منهجه السائرين على دربه.

قـال الله تبارك وتعـالى: **﴿ولقـد آتيناك سبعًـا من المثانى والقـرآن العظيم﴾**[1].

وقال جل شأنه: **﴿بل هو قرآن مجيد﴾**[2].

وقال سبحانه وتعالى: **﴿وإنه لكتـاب عزيز لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾**[3].

وصح عن النبى ﷺ أنه حـدث عن جبـريل عليه السـلام عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (من شغله قراءة كتابى عن مسألتى: أعطيته أفضل

---

(١) سورة الحجر الآية ٨٧. (٢) سورة البروج الآية ٢١.
(٣) سورة فصلت الآيتان [٤١ ، ٤٢].

ما أعطى الشاكرين) وفى رواية أخرى (السائلين).

وعن أنس عن النبى ﷺ أنه قال: «إن لله أهلين من الناس فقيل: من هم يا رسول الله؟

قال: أهل القرآن. هم أهل الله وخاصته»

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- يرفعه: (أشراف أمتى: حملة القرآن وأصحاب الليل).

وعنه أيضًا يرفعه:

(من أعطى القرآن فظن أن أحدًا أعطى أفضل مما أعطى: فقد عظم ما حقر الله وحقر ما عظم الله) وقال: (من أوتى القرآن: فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لم يوح إليه).

وسئل النبى ﷺ: من أفضل الناس؟ فقال: «الحال المرتحل قيل: ومن الحال المرتحل؟ قال: صاحب القرآن.. كلما حل ارتحل: أى كلما أتم ختمة: استأنف ختمة أخرى».

وعن على -رضى الله عنه- قال: (ذكر لرسول الله ﷺ الفتنة .. قلنا يا رسول الله: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله: فيه نبأ ما قبلكم وفصل ما بينكم وخبر ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تلتبس له الألسن ولا يزيغ به الأهواء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، ولا تنقضى عجائبه، هو الذى لم يلبث الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبًا﴾[1]. من قال به: صدق ومن حكم به عدل ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم.

وعن ابن مسعود -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله فى أرضه فتعلموا مأدبته ما استطعتم وإن هذا القرآن هو

---

(١) سورة الجن الآية ١.

حبل الله فهو نوره المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاقرءوه فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول: آلم عشر ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة) .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

وعن أبى الدرداء -رضى الله عنه- يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «القرآن أفضل من كل شىء دون الله فمن وقر القرآن: فقد وقر الله ومن لم يوقر القرآن، فقد استخف بحرمة الله، حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده».

وعن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال: «من قرأ ثلث القرآن فقد أوتى ثلث النبوة، ومن قرأ نصف القرآن أوتى نصف النبوة، ومن قرأ ثلثى القرآن أوتى ثلثى النبوة ومن قرأ القرآن كله أوتى النبوة كلها، ثم يقال له يوم القيامة: اقرأ وارق بكل آية درجة حتى يتبخر ما معه من القرآن ثم يقال له: اقبض فيقبض فيقال: هل تدرى ما فى يديك؟ فإذا فى اليمنى الخلد وفى الأخرى النعيم».

وعن عائشة -رضى الله عنها- عن النبى ﷺ أنه قال: «حملة **القرآن محفوفون برحمة الله الملبسون نور الله المعلمون كلام الله فمن عاداهم** فقد عادى الله ومن والاهم فقد والى الله».

يقول الله عز وجل: «يا حملة كتاب الله تحببوا إلى الله بتوقير كتابه يزدكم حبًا ويحببكم إلى خلقه يدفع عن مستمع القرآن شر الدنيا ويدفع عن تالى القرآن بلوى الآخرة.

ولمستمع آية من كتاب الله خير من ثبير ذهبًا ولتالى آية من كتاب الله خير مما تحت العرش إلى تخوم الأرض السفلى.

وعن أبى بـريدة -رضى الله عنه- قـــال: «كنت عند الـنبى ﷺ فسمعته يقول: إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره: كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفنى؟ فـيقول. ما أعرفك فيقول: أنا صاحبك.. القرآن الذى أظمأتك فـى الهواجر، وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة.

قال: فيـعطى الملك بيمينه، والخلد بشمـاله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتين لا يقـوم لهما أهل الدنيا فيقـولان: بم كسينا هذا؟ فيقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له: اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها فهو فى صعود ما دام يقرأ: هذًا كان أو ترتيلاً».

وعن معـاذ -رضى الله عنه- قال: «كـنت فى سفـر مع رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله حدثنا بحديث فـقال: إن أردتم عيش السعداء أو مـوت الشهـداء والنجاة يوم الحـشـر والظل يوم الحرور والهـدى يوم الضـلالة: فـادرسوا القـرآن فـإنه كلام الـرحمن وحـرس من الشـيطان ورجحان فى الميزان».

وعن عـقبة بن عـامر قـال: «خرج علينا رسـول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى الصفـة فقال: أيكم يحب أن يغـدو كل يوم إلى بطحان - أو العقـيق فيأتى بناقـتين كومادين زهـراوين فى غير إثم ولا قطيـعة رحم؟ قلنا: كلنا يا رسول الله يحب ذلك.. قـال: لأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد فيـتعلم آيتين من كتاب الله خير له من نـاقتين وثلاث خير له من ثلاث من أعدادهن من الإبل».

وعن عائشـة -رضى الله عنها- قالت: قـال رسول الله ﷺ «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذى يتتعتع فيه له أجران».

وروى عن أبى ذر أنه جـاء إلى النبى ﷺ فقـال: يا رسول الله إنى أخاف أن أتعلم القرآن ولا أعمل به فقال ﷺ: «لا يعذب الله قلبًا أسكنه القرآن».

وعن أنس عن النبى ﷺ أنه قال: «من علم آية من كـتاب الله كان

له أجرها ما تليت» .

وعن ابن مسعود -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن مؤثرا فإن فيه علم الأولين والآخرين ألم تسمعوا قوله: ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شىء﴾» .

وعن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «أعطيت السبع الطوال مكان التوراة وأعطيت المائدة مكان الإنجيل وأعطيت المثانى مكان الزبور، وفضلت بالمفصل» .

وعن عثمان بن عفان -رضى الله عنه- أنه قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» .

قال ابن عباس -رضى الله عنهما-: افتخرت السماء على الأرض فقالت: أنا أفضل: فىّ العرش والكرسى واللوح والمقام وفىّ جنة المأوى وجنة عدن وفىّ الشمس والقمر والنجوم ومنى ينزل أرزاق الخلق وفىّ الرحمة فقالت الأرض: وتركت أن تقول: فىّ الأنبياء والأولياء وفىّ بيت الله بل قالت: أليس تنقلب أضلاع حملة القرآن فى بطنى فقال الله: صدقت يا أرض وكان افتخارها على السماء أن قال الله لها: صدقت! .

وعن أبى موسى الأشعرى -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ «مثل الذى يقرأ القرآن ويعمل به مثل الأترجة: طعمها طيب وريحها طيب، ومثل الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به مثل التمرة: طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الذى يقرأ القرآن ولا يعمل به: كمثل الريحانة لها رائحة وطعمها مر، ومثل الذى لا يقرأ القرآن ولا يعمل به مثل الحنظلة: لا طعم لها ولا رائحة» .

وسئل النبى ﷺ: «من أحسن الناس صوتًا؟ قال: من إذا سمعته يقرأ خشية: تخشى الله وكان ﷺ يقول لأصحابه: اقرأوا القرآن بحزن فإنه نزل بحزن» .

وقال ﷺ: «إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل: فما جلاؤها يا رسول الله قال: ذكر الموت وتلاوة القرآن. ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿وشفاء لما فى الصدور﴾[1].

وقال عليه السلام: القرآن هو الدواء.

وقال: «لا فاقة بعد القرآن ولا غنى دونه» وقال: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه» وقال: «القرآن شافع مشفع أو ماحل مصدق».

وقال: «من قرأ القرآن وعمل بما فيه: لم يردّ إلى أرذل العمر».

وقال فى قوله: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ قال: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

النجاة من عذاب القبر

إذا سألنا وقلنا: ما هى أسباب المنجيات من عذاب القبر حتى نأخذ فى تحصيلها؟

فإن الجواب على ذلك يكون من وجهين: أحدهما مجمل والآخر مفصل.

أما المجمل: فهو تجنب تلك الأسباب التى تقتضى عذاب القبر ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه فى يومه، ثم يجدد له توبة نصوحًا بينه وبين الله فينام على تلك التوبة، ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ ويفعل هذا كل ليلة فإن مات من ليلته مات على توبة وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل مسرورًا بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاته وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التى وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيرًا وفقه لذلك ولا قوة إلا بالله

---

(١) سورة يونس الآية ٥٧.

أما الجواب المفصل فذكر أحاديث عن رسول الله ﷺ فيما ينجى من عذاب القبر: فمنها: ما رواه مسلم فى صحيحه عن سلمان -رضى الله عنه- قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول : رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات أجرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»

وفى جامع الترمذى من حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطًا فى سبيل الله فإنه ينمّى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر» قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

وفى سنن النسائى عن رشدى بن سعد عن رجل من أصحاب النبى ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ قال: كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة.

وعن المقدام بن معديكرب -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع فى سبعين من أقاربه) رواه ابن ماجه والترمذى وهذا لفظه وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «ضرب رجل من أصحاب رسل الله ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها فأتى النبى ﷺ فقال يا رسول الله: ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها فقال النبى ﷺ: «هى المانعة، هى المنجية: تنجيه من عذاب القبر» قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب.

وفى سند عبد بن حميد عن إبراهيم بن الحكم عن أبيه عكرمة عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أنه قال لرجل: ألا أتحفك بحديث تفرح

(١) سورة الملك الآية ١.

به؟ قال الرجل: بلى؟ قال: اقرأ: ﴿**تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير**﴾[1]. احفظها وعلمها أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب النار إذا كانت فى جوفه وينجى الله بها صاحبها من عذاب القبر، قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى».

قال أبو عمر بن عبد البر: وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن سورة ثلاثين آية شفعت فى صاحبها حتى غفر له»: ﴿**تبارك الذى بيده الملك**﴾.

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- يرفعه: «من مات مبطونًا: مات شهيدًا ووقى فتنة القبر وغدى وريح عليه برزق من الجنة».

وفى سنن النسائى عن جامع بن شداد قال: سمعت عبدالله بن يشكر يقول: «كنت جالسًا مع سليمان بن صرة وخالد بن عرفطة فذكروا أن رجلاً مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: من قتله بطنه لم يعذب فى قبره».

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده حدثنا شعبة حدثنى أحمد بن جامع بن شداد قال أبى فذكره وزاد: فقال الآخر: بلى.

وفى الترمذى من حديث ربيعة بن سيف عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر».

قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب وليس إسناده بمتصل.

---

(١) سورة الملك الآية ١.

وقد جاء فيما ينجي من عذاب القبر حديث فيه الشفاء رواه أبوموسى المدينى وبين علّته فى كتابه (الترغيب والترهيب وجعله شرحًا له) رواه من حديث الفرج بن نضالة حدثنا هلال أبو جبلة عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى صفة بالمدينة فقام علينا فقال: إنى رأيت البارحة عجبًا رأيت رجلاً من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالدين فرد ملك الموت عنه. ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه. ورأيت رجلاً من أمتى احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلاً من أمتى يلهث عطشًا كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان فأسقاه ورواه. ورأيت رجلاً من أمتى ورأيت النبيين جلوسًا حلقًا حلقًا كلما دنا إلى حلقة طرد ومنع فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى. ورأيت رجلاً من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحير فيها فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور. ورأيت رجلاً من أمتى يتقى وهج النار وشررها فجاءته صدقته فصارت سترًا بينه وبين النار وظلاً على رأسه. ورأيت رجلاً من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمه فقالت: يا معشر المؤمنين إنه كان وصولاً لرحمه فكلموه فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم. ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله فى ملائكة الرحمة. ورأيت رجلاً من أمتى جاثيًا على ركبتين وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله عز وجل. ورأيت رجلاً من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله -عز وجل- فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه. ورأيت رجلاً من أمتى خف ميزانه فجاءه إفراطه فثقلوا ميزانه. ورأيت رجلاً من أمتى قائمًا على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عز وجل

فاستنقذه من ذلك ومعنى ورأيت رجلاً من أمتى قد هوى فى النار فجاءته دمعته التى بكى من خشية الله -عز وجل- فاستنقذته من ذلك. ورأيت رجلاً من أمتى قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فى ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن روعه ومضى. ورأيت رجلاً من أمتى يزحف على الصراط يحبو أحيانًا ويتعلق أحيانًا فجاءته صلاته فأقامته على قدميه وأنقذته. ورأيت رجلاً من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة.

قال الحافظ أبو موسى: هذا حديث حسن جداً فبادر يا أخى بالأعمال الصالحة كما أمرك بذلك مولانا سبحانه وتعالى فى قوله: **﴿فاستبقوا الخيرات﴾**[1] وفى قوله عز وجل **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾**[2].

وفى قوله جل شأنه **﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾**[3].

وفى قوله تبارك وتعالى **﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾**[4].

قال ﷺ: «بادروا بالأعمال الصالحة سبعًا هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو هرمًا مفندًا، أو مرضًا مفسدًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر».

فكن لله ذاكرًا وإياك ونسيان الموت فنسيانه ضلال مبين.

واعلم بأن خير الأعمال: ذكر الله.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٨. (٢) سورة آل عمران الآيتان [١٣٣ ، ١٣٤].
(٣) سورة الحديد الآية ٢١. (٤) سورة المطففين الآية ٢٦.

والذكر على سبعة أنحاء:

ذكر العينين: البكاء.

ذكر الأذنين: الإصغاء.

ذكر اللسان: الثناء.

ذكر اليدين: العطاء.

ذكر البدن: الوفاء.

ذكر الروح: الخوف والرجاء.

ذكر القلب: التسليم والرضاء.

فضل ذكر الله

قال صلوات الله وسلامه عليه: «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده».

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قلنا: بلى قال: ذكر الله».

مناجاة

ما والذى أبكى وأضحك والذى

أمات وأحيا والذى أخرج المرعى

لقد خاب من يسعى إلى غير بابه

وضل الذى يومًا إلى غيره يدعى

هو القصد لا شىء سواه فمن سعى

إلى غير ذاك القصد ياخيبة المسعى

هو الماجد البر الرحيم وغيره

من الناس لا يستطيع ضرًا ولا نفعا

يعامل بالغفران والصفــح من عصــى
ويوصل من يستوجب الهجر والقطعا
فسبحانه لا رب فى الكــون غيــره
يحب الذى يلقى إلى قوله السمعــا

ســؤال القبــر

اعلم بأن سؤال القــبر: يعم المؤمن والكافــر والقرآن والسنة يؤيدان ذلك.

﴿يثبت الله الذين آمـنوا بالقول الثابت فى الحـياة الدنيـا وفى الآخرة ويضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾(1).

وقد ثبت فى الصحيح أنها نـزلت فى عذاب القبر حين يسأل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ .

وفى الصــحيــحين عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنــه قال: «إن العبـد إذا وضع فى قبـره وتولى عنه أصحابه: إنه ليـسمع قـرع نعالهم» وذكر الحديث.

زاد البخارى:

وأمــا المنافق والكافــر فيــقال له: مــا كنت تقــول فى هذا الرجل؟ فــيقــول: لا أدرى كنت أقول كــمــا يقول الناس فــيقــال: لا دريت ولا تليت. . . ويضرب بمطرقة من حــديد يصيح صيحة يسمــعها من يليه إلا الثقلين. وقد أخبر الله فى كتابه أنه يســأل الكافر يوم القيامة قال تعالى: **﴿ويوم يناديهم فيقـول ماذا أجبتم المرسلين﴾**(2). وقال تعالى: **﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾**(3).

وقال تعالى: **﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾**(4).

---

(1) سورة إبراهم الآية ٢٧.
(2) سورة القصص الآية ٦٥.
(3) سورة الحجر الآية ٩٢.
(4) سورة الأعراف الآية ٦.

فإذا سئلوا يوم القيامة: فكيف لا يسألون فى قبورهم؟

مستقر الأرواح

هناك أسئلة تتعلق بالروح وتجد النفس اشتياقًا ملحًا لمعرفة الإجابة عنها...

وأول هذه الأسئلة:

أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة؟

ويتفرع عن هذا السؤال أسئلة تقول:

هل هى فى السماء أم فى الأرض؟ .. وهل هى فى الجنة. أم لا؟.

قال العلماء - تعقيبًا على هذه الأسئلة - : هذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس .. ومصدر الإجابة عنها هو السمع: أى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

يرى العلماء أن أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة: شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم تحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وإن روح الكافر فى النار.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: **﴿فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم﴾**[1].

قال المستدل: وهذا قد ذكره سبحانه وتعالى عقب ذكر خروجها من البدن بالموت فى قوله جل شأنه: **﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم. وأنتم حينئذ تنظرون. ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون. فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين﴾**[2].

قال سبحانه بعد ذلك: **﴿فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم﴾**[3].

---

(١) سورة الواقعة الآيتان [٨٨ ، ٨٩].

(٢) سورة الواقعة الآيتان [٨٣ : ٨٧].

(٣) سورة الواقعة الآيتان [٨٨ : ٨٩].

فقد قسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام:

(مقربين).. أخبر أنها فى جنة النعيم.

(وأصحاب يمين): حكم لها بالسلام، وهو يتضمن سلامتها من العذاب.

(ومكذبة ضالة): وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم.

قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعًا.

وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة فى أول السورة، فذكر حالها بعد الموت وبعد البعث.

واحتجوا بقوله تعالى: **﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعى إلى ربك راضية مرضية. فادخلى فى عبادى، وادخلى جنتى﴾**[1].

وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين: إن هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا يبشرها الملك بذلك.

ولا ينافى ذلك قول من قال إن هذا يقال لها فى الآخرة، فإنه يقال لها عند الموت وعند البعث، وهذه من البشرى التى قال الله فيها: **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا. تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾**[2].

وهذا التنزل يكون عند الموت، ويكون فى القبر، ويكون عند البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت.

وقد جاء فى حديث رسول الله ﷺ أن الملك يقول لها عند قبضها: أبشرى بروح وريحان. وهذا من ريحان الجنة وروى الإمام مالك فى (الموطأ) عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنه أخبره أن أباه كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن: طائر تعلق فى شجرة الجنة حتى يرجعه الله إلى حياة يوم يبعثه».

(١) سورة الفجر الآيتان [٢٧ : ٣٠].

(٢) سورة فصلت الآية ٣٠.

قال أبو عمرو: المراد بنسمة المؤمن: روحه. وقد شاء فضل الله تعالى أن يخص الشهداء بمنازل كريمة ودرجات رفيعة، جزاء ما بذلوا وقاتلوا وقتلوا.

قال ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار: الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنين وسبعين من الحور العين، ويشفع فى سبعين إنسانًا من أقاربه».

فلما كان هذا يختص بالشهيد قال: «إن للشهيد» ولم يقل: «إن للمؤمن». وكذلك قوله فى حديث قيس الجزامى: «يعطى الشهيد ست خصال». وكذلك سائر الأحاديث والنصوص التى علق فيها الجزاء بالشهادة.

وعنه ﷺ أنه قال: «أرواح الشهداء تجول فى أجواف طير خضر تعلق فى ثمر الجنة».

وعن معمر عن قتادة قال: بلغنا أن أرواح الشهداء فى صور بيض تأكل من ثمار الجنة.

وعن أبى عاصم الشبيل عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عبد الله بن عمرو : «أرواح الشهداء فى طير كالزرازير يتعارفون ويرزقون من ثمرة الجنة».

قال أبو عمر: هذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء، دون غيرهم. وفى بعضها «فى صور طير» . وفى بعضها «فى أجواف طير» وفى بعضها «كطير خضر».

قال: والذى يثبت عندى -والله أعلم- أن يكون القول قول من قال «كطير» أو «صور الطير».

ثم: مازلنا بصدد الحديث عن مستقر الأرواح.

قال أبو عبد الله بن منده: وروى موسى بن عبيدة عن عبد الله بن يزيد عن أم كبشة بنت المعرور قالت: «دخل علينا رسول الله ﷺ، فسألناه عن هذه الأرواح؟ فوصفها صفة أبكى أهل البيت. فقال: «إن أرواح المؤمنين فى حواصل طير خضر، ترعى فى الجنة، وتأكل من ثمارها، وتشرب من مائها، وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت الدش يقولون: ربنا ألحق بنا إخواننا وآتنا ما وعدتنا».

وإن أرواح الكفار فى حواصل الطير سود، تأكل من النار وتشرب من النار، وتأوى إلى حجر فى النار.. يقولون: ربنا لا تلحق بنا إخواننا ولا تؤتنا ما وعدتنا.

وقال الطبراني: حدثنا أبو زرعة الدمشقى، حدثنا عبدالله بن صالح حدثنى معاوية بن صالح عن صخرة بن حبيب قال: سئل النبى ﷺ عن أرواح المؤمنين، فقال: فى طير خضر، تسرح فى الجنة حيث شاءت قالوا يا رسول الله وأرواح الكفار؟ قال محبوسة فى سجين.

رواه أبو الشيخ عن هشام بن يونس عن عبدالله بن صالح (ورواه) أبو المغيرة عن أبى بكر بن أبى مريم عن صخرة بن حبيب.

وعن تميم الرازى عن النبى ﷺ أنه قال: إذا عرج ملك الموت بروح المؤمن إلى السماء: استقبله جبرائيل فى سبعين ألفًا من الملائكة كل منهم يأتيه ببشارة من السماء، سوى بشارة صاحبه فإذا انتهى به إلى العرش: خر ساجدًا فيقول الله -عز وجل- لملك الموت: انطلق بروح عبدى فضعه فى سدر مخضود وطلح منضود وظل مدود وماء مسكوب.

رواه بكر بن خنيس عن خدار بن عمرو عن زيد وأبى عبدالله.

كلمة عن الروح

اعلم يا أخى - وفقنى الله وإياك - أن الروح لا يمنعها شىء من الإشراف والاتصال بالقبر وفنائه.. وذلك القدر من الإشراف كاف لعرض مقعده عليه... فإن للروح شأنًا آخر: تكون فى الرفيق الأعلى

فى أعلى عليين ولهـا اتصال بالبدن سلم المسلم عـلى الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهى فى الملأ الأعلى.

ومن الخطأ الشنيع أن يعـتقـد بعض الناس أن الروح من جنس مـا يعـهد من الأجـسام التى إذا شـغلت مكانًا لا يمكن أن تكون فى غـيره. وهذا خطأ مـحض... بل الروح تكون فـوق فى أعلى عليين وترد إلى القبر فترد السلام. وتعلم بالمسلم وهى فى مكانها هناك وروح رسول الله ﷺ فى الرفيق الأعلى دائمًا ويردها الله سـبحانه وتعالى إلى القبـر فترد السلام على من سلم عليه وتسمع كلامه.

وقـد رأى رسول الله ﷺ مـوسى قائمًـا يصلى فى قبـر، ورآه فى السماء الخامسة والسادسة والسابعة: فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البـصر، وإمـا أن يكون المتـصل منها بالقـبـر وفنائه بمنزلة شعـاع الشمس وجرمها فى السماء.

وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخـترق السبع الطباق وتسجد لله بين يدى العرش، ثم ترد إلى جسده فى أيسر زمان.

وكـذلك روح الميت: تصعـد بها المـلائكة حتى تجـاوز السمـاوات السبع، وتقف بين يدى الله فتسجد له، ويقضى فيها قضاء، ويريها الملك ما أعد الله لها فى الجنة، ثم تهبط فتشهد غسله وحمله ودفنه.

وقد ذكر أبو عبدالله بن منده من حديث عيسى بن عبدالرحمن:

حدثنا ابن شهاب، حدثنا عامـر بن سعد عن إسماعيل بن طلحـة ابن عبيد الله عن أبيه قـال: «أردت مالى بالغابة، فأدركنى الليل، فأويت إلى قبر عبدالله بـن عمرو بن حرام، فسمعت قراءة من القـبـر ما سمعت أحسن منهـا فجئت إلى رسـول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فـقال: ذلك عبدالله.. ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقـها وسط الجنة، فإذا كان الليل ردت إليـهم أرواحهم فلا يزال كـذلك، حتى إذا طـلع الفجـر: ردت أرواحـهم إلى مكانهم الذى كانت به».

فـفى هذا الحديث: بيـان سرعـة انتقـال أرواحهم من العـرش إلى الثرى، ثم انتقالها من الثرى إلى مكانها.

ولهذا قال مالك وغيره من الأئمة: إن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت وما يراه الناس من أرواح الموتى ومجيئهم إليهم من المكان البعيد: أمر يعلمه عامة الناس . ولا يشكون فيه.

ابن القيم والعلاقة بين الحى والميت

عقد العلامة ابن القيم فصلاً يدور حول سؤال، مفاده: هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم. . أم لا؟ ولما كان هذا السؤال يلقى ظلالاً على نفس السائل: لابد من كشف الغطاء عنها. . فإن الإجابة جاءت موافقة للقاعدة التى قعدناها من قبل، والتى تفيد أن المصدر الحقيقى لما يدور بعد الموت: إنما هو السماع من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

ولذا بدأ «ابن القيم» الإجابة قائلاً:

قال ابن عبدالبر ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام.

وفى الصحيحين عنه ﷺ - من وجوه متعددة - «أنه أمر بقتلى بدر فألقوا فى قليب، ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم: يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًا فقال له عمر: يا رسول الله: ما تخاطب من أقوام قد جيفوا. . . فقال: والذى بعثنى بالحق: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جوابًا».

وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه. وقد شرع النبى ﷺ لأمته: إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه، فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل. ولولا ذلك: لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب لمعدوم والجماد.

والسلف الصالح مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له، ويستبشر به.

وقال أبو بكر عن عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا فى كتاب

«القبور»: باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء:

حدثنا محمد بن عون، حدثنا يحيى بن يمان عن عبدالله بن سمعان عن زيد بن أسلم عن عائشة -رضى الله عنها- قالت:

قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده: إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم».

حدثنا محمد بن قدامة الجوهرى، حدثنا معن بن عيسى القزاز، أخبرنا هشام بن سعد، حدثنا زيد بن أسلم عن أبى هريرة -رضى الله تعالى عنه- قال: «إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه: رد عليه السلام وعرفه، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه: رد عليه السلام».

حدثنا محمد بن الحسين، حدثنى يحيى بن بسطام الأصغر حدثنى مسمع حدثنى رجل من آل عاصم الجحدرى قال: «رأيت عاصمًا الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا والله فى روضة من رياض الجنة . . أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبدالله المزنى فنتلقى أخباركم. قال: قلت: أجسادكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات. . بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعم، نعلم بها عشية الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قال، قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته».

وحدثنا محمد بن الحسين وحدثنى بكر بن محمد، حدثنا حسن القصاب قال: كنت أغدو مع محمد بن واسع فى كل غداة سبت حتى نأتى المقابر فنقف على القبر فنسلم عليهم وندعو لهم، ثم ننصرف، فقلت ذات يوم: لو صيدت هذا اليوم -يوم الإثنين- قال: بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوم قبلها ويوم بعدها.

حدثنى محمد، حدثنا عبدالعزيز بن أبان، قال: حدثنا سفيان الثورى، قال: «بلغنى عن الضحاك أنه قال: من زار قبرًا يوم السبت قبل طلوع الشمس: علم الميت بزيارته، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة»

حدثنى محمد بن الحسين، حدثنى يحيى بن أبى بكير حدثنى

الفضل بن موفق بن خال سفيان بن عيينة قال: «لما مات أبى: جزعت عليه جزعًا شديدًا فكنت آتى قبره فى كل يوم ثم قعدت من ذلك ما شاء الله ثم إنى أتيته يومًا... فبينما أنا جالس عند القبر: غلبتنى عيناى، فنمت فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج وكأنه قاعد فى قبره متوشحًا أكفانه، عليه سحنة الموتى، قال فكأنى بكيت لما رأيته، قال: يا بنى ما أبطأ بك عنى؟ قلت: وإنك لتعلم بمجيئى؟ قال: ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنت تأتينى فآنس بك وأسر بك ويسر من حولى بدعائك، قال: فكنت آتيه بعد ذلك كثيرًا».

(حدثنى) محمد، حدثنى يحيى بن بسطام حدثنى عثمان بن سودة الطغاوى، قال: وكانت أمه من العابدات وقال:

«لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت: يا ذخرى وذخيرتى ومن عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى لا تخذلنى عند الموت ولا توحشنى فى قبرى، قال: فماتت فكنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور فرأيتها ذات يوم فى منامى فقلت لها: يا أماه:كيف أنت؟ قالت: أى بنى: إن الموت لكربة شديدة وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود نفترش فيه الإيمان ونتوسد فيه السندس، والإستبرق إلى يوم النشور، فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم قلت: وما هى؟ قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة، إذا أقبلت من أهلك، يقال لى: هذا ابنك قد أقبل فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات».

حدثنى محمد بن عبدالعزيز بن سليمان، حدثنا بشر بن منصور قال: «لما كان زمن الطاعون فكان رجل يختلف إلى المقابر فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى: وقف على باب المقابر فقال: آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل حسناتكم. ؟ لا يزيد على هذه الكلمات، قال: فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو، قال: فبينا أنا نائم: إذا بخلق كثير قد جاءونى فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك. فقلت: وما هى؟ قالوا: الدعوات التى كنت تدعو بها، قال: قلت أعود لذلك، قال: فما تركتها بعد».

حدثنى محمد، حدثنى أحمد بن سهل، حدثنى رشد بن سعد عن رجل عن يزيد بن أبى حبيب أن سليم بن عمير مر على مقبرة وهو حاقن قد غلبه البول فقال له بعض أصحابه: «لو نزلت إلى هذه المقابر فبُلت فى بعض حضرها، فبكى، ثم قال: سبحان الله !! والله إنى لأستحى من الأموات كما أستحى من الأحياء».

ولولا أن الميت يشعر بذلك: لما استحييت منه.

قال العلامة ابن القيم: وأبلغ من ذلك: أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه.

قال عبدالله بن المبارك: حدثنى ثور بن يزيد عن إبراهيم عن أبى أيوب، قال: «تعرض أعمال الأحياء على الموتى فإذا رأوا حسنًا: فرحوا واستبشروا، وإذا رأوا سوءًا: قالوا اللهم راجع به.

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال: حدثنى محمد أخى، قال: «دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين، فقال: عظنى، قال: بم أعظك؟ أصلحك الله... بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك؟ فبكى إبراهيم حتى اخضلت لحيته».

قال ابن أبى الدنيا: وحدثنى محمد بن الحسين، وحدثنى خالد بن عمرو الأموى، حدثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال: كنت قد أذنبت ذنبا - ثم أنبت وتبت وندمت على ما فرطت، قال: ثم زللت أيما زلة، فرأيت فى المنام، فقال: أى بنى: ما كان أشد فرحى بك .. أعمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين، فلما كانت هذه الزلة: استحييت لذلك حياء شديدًا فلا تحزنى، فمن حولى الأموات.. قال: فكنت أسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر - وكان جاراً لى بالكوفة: أسألك إنابة لا رجعة فيها ولا حوراً يا مصلح الصالحين ويا هادى المضلين ويا أرحم الراحمين:

وهذا باب فى آثار كثيرة عن الصحابة، وكان بعض الأنصار من أقارب عبدالله بن رواحة يقول: اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبدالله بن رواحة كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبدالله.

ويكفى فى هذا تسمية المسلم عليهم زائر ولولا أنهم يشعرون به، لما صح تسميته زائراً فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاروه: لم يصح أن يقال زاره.

هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم، وكذلك: السلام عليهم أيضًا. . فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم: محال.

وقد علم النبى ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية».

قال يزيد بن هارون: أخبرنا سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدى أن ابن ساس خرج فى جنازة فى يوم وعليه ثياب خفاف فانتهى إلى قبر. . قال: فصليت ركعتين ثم اتكأت عليه فوالله إن قلبى ليقظان إذ أسمعت صوتًا فى القبر: إليك عنى لا تؤذنى فانكم قوم تعملون ولا تعلمون ونحن قوم نعلم ولا نعمل ولأن يكون لى مثل ركعتيك أحب إلى من كذا وكذا».

فهذا قد علم باتكاء الرجل على القبر وبصلاته. وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى الحسين بن على العجلى حدثنا محمد بن الصلت، حدثنا إسماعيل بن عياش عن ثابت بن سليم حدثنا أبو قلابة، قال: أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت منزلاً فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسى على قبر فنمت ثم انتبهت، فإذا صاحب القبر يشتكينى، يقول: قد آذيتنى منذ الليلة. . ثم قال: إنكم تعملون ولا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال: الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها. ثم قال: جزى الله أهل الدنيا خيراً. . أقرئهم منا السلام، فإنه يدخل علينا من دعائهم نوراً أمثال الجبال».

استئناس الميت
بالمشيعين لجنازته

ثبت فى الصحيح أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه. . .

روى مسلم فى صحيحه من حديث عبدالرحمن بن شماسة المهدى، قال: «حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: ما يبكيك يا أبتاه؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا، فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإنى كنت على أطباق ثلاث، لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ منى ولا أحب إلى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار. فلما جعل الله الإسلام فى قلبى: لقيت رسول الله ﷺ، فقلت: أبسط يديك فلأبايعك، فبسط يمينه قال: فقبضت يدى، قال: فقال: مالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشترط قال: تشترط ماذا؟ قلت أن يغفر لى. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، وما كان أحداً أحب إلىّ من رسول الله ﷺ، ولا أجل فى عينى منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأنى لم أكن أملأ عينى منه، لو مت على تلك الحال: لرجوت أن أكون من أهل الجنة. . ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالى فيها، فإذا أنا مت فلا تصاحبنى نائحة ولا نار، فإذا دفنتمونى: فسنوا على التراب سنا ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنمر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى.

فدل ذلك على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم.

وقد ذكر عن جماعة من السلف الصالح أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن.

قال عبدالحق: يروى أن عبدالله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة. وممن رأى ذلك: المعلى بن عبدالرحمن وكان الإمام أحمد منكر ذلك أولاً، حيث لم يبلغه فيه أثر، ثم رجع عن ذلك.

الماديون والموت

إن الصلة بين الحى والميت أكبر وأستر وأقوى من صلة الأحياء بالأحياء. وخاطئ كل الخطأ: من ظن أن الموت حكم بالإعدام وهذا ما يردده الماديون الغافلون المضلون، إن الموت مرحلة انتقال من عالم الفناء إلى عالم الخلود والبقاء.

انتقال من جوار الخلق إلى رحاب الحق. انكشاف للحجب الكثيفة. **﴿لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾**(١).

والذى أوقع الماديين فى هذه الهوة السحيقة من الضلال حتى ذهبوا إلى فهم الموت على أنه انطفاء الحرارة وتحلل الرطوبات وقالوا: ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما هى إلا الأرحام تدفع وأرض تبلع.

الذى أوقعهم فى هذا الضلال: أنهم قاسوا الغائب على الشاهد وطلبوا المحسوس فى غير المحسوس سقط خلفه يعم عن المحسوس كغشاء عين الخفافيش عن رؤية الأجسام البينة لنا فى ضوء الشمس:

قل لهؤلاء الماديين الحسيين: وهل نحن أبصرنا قوانين الكون، وهل وقعت أجزاؤه تحت حسنا، هل رأت أبصارنا الأشعة فوق البنفسجية أو تحت الحمراء؟

هل أدركنا حقيقة المغناطيسية أو الجاذبية أو الضوء أو الأثير؟

هل وقعت أيدينا على هذه الحقائق الماثلة فى هذا الكون الرحيب؟

فإذا كنا لم ندرك حقيقتها .. فكيف تصل عقولنا إلى أن نكيف

---

(١) سورة ق الآية ٢٢.

عالم البرزخ، وهو محيط أعنف من أن يعجز عبابه سباح ماهر.

إن إدراك عالم البرزخ: ليس مجاله الحسن كما أن العقل يقف واجمًا أمام بحاره.

إنما طريقه: الوحى المعصوم.

فإن الموت أمر متعلق بالروح، قال تعالى: **﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى .. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾**(١).

تعلقات الروح بالبدن

اعلم. وفقنى الله وإياك أن للروح خمسة تعلقات بالبدن:

التعلق الأول:

تعلقها به فى عالم الأرحام: فبعد أن مضت مدة النطفة فالعلقة، فالمضغة: نفخ الله فينا الأرواح. . . قال تبارك اسمه: **﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذى أحسن كل شىء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾**(٢).

التعلق الثانى:

تعلقها بالبدن فى هذه الدنيا حيث تقوم ببث الحياة فينصرف البدن ويباشر أعباء الحياة قال تبارك اسمه: **﴿ثم أنشأناه خلقًا آخر ... فتبارك الله أحسن الخالقين﴾**(٣).

التعلق الثالث:

تعلقها بالبدن عند النوم فإنها وقتذاك يكون لها مباشرة من وجه خاص. . قال جل شأنه: **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت**

(١) سورةا لإسراء الآية ٨٥. (٢) سورة السجدة الآيات [٦:٩].

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٤.

في منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[1].

التعلق الرابع:

تعلقها بالبدن بعد الموت فى عالم البرزخ.. قال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحًا فيما تركت.. كلا .. إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾[2].

التعلق الخامس:

تعلقها به يوم القيامة بعد البعث.. قال جل جلاله: ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرقت الأرض بنور ربها﴾[3].

وقال عز من قائل: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾[4].

ملاحظة جديرة بالاعتبار

من تأمل التعلقات السابقة: يلاحظ أن كل مرحلة من هذه المراحل أوسع أفقًا وأرحب منزلة عما قبلها.

ولذا قيل: إن خروج المؤمن من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة: كخروج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا:

فتعلق الروح بالجنين فى الرحم مكان ضيق، وتعلقها به فى الدنيا حال اليقظة مكان أوسع، وتعلقها به فى المنام أرحب وأوسع حيث تنتقل الروح فى أرجاء الكون.

والموت أوسع وأوسع:

فقد جاء فى الحديث: «لتموتن كما تنامون».

ولأن الموت تخلص من ظلمة المادة مما يعطى الروح رحابة أفق.

وتعلقها به بعد البعث: أشد رحابة وأوسع أفقًا.

---

(١) سورة الزمر الآية ٤٢.
(٢) سورة المؤمنون الآية ١٠٠.
(٣) سورة الزمر الآيتان [٦٨ ، ٦٩].
(٤) سورة المؤمنون الآيتان [١٥ ، ١٦].

قال تعالى: ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾[1].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يقول فيهم: ﴿فأما إن كان من المقربين، فروح وريحان وجنة نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين﴾[2].

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.. ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا. ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[3].

وصلى الله على سيدنا محمد البشير النذير وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين واحشرنا فى زمرتهم يا رب العالمين. آمين.

فصل
المراقبة والمحاسبة

اعلموا أيها العقلاء أنكم غدًا بين يدى الله موقوفون وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فاليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل.

غدًا توفى النفوس ما كسبت
ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم
وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قيل لتقى الدين الحسن البصرى -رضى الله عنه-: أى الأيام عندك عيد فقال: كل يوم لا أعصى الله فيه فهو عيد.

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى
تقلب عريانًا ولو كان كاسيا

(٢) سورة ق الآية ٢٢. (٢) سورة الواقعة الآيات [٨٨ : ٩١].

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

وخير لبـاس المرء طـاعة ربـه

ولا خير فيمن كان لله عاصـيا

كان فاروق هذه الأمة -رضي الله عنه- إذا أخذ مضجعه لينام كان يردد هذا النشيد المصحوب بالتشنج: كان يسأل نفسـه هذا السؤال: ماذا تقول لربك غدًا يا عمر؟ لقد كنت ضالاً فهداك الله وكنت ضعيفًا فرفعك الله وكنت ذليـلاً فأعـزك الله، فمـاذا تقـول لربك غدًا؟ فـهذا الفـاروق يحاسب نفسـه وهو الذى كان يقول: لو عثرت بغـلة فى العراق لسألنى الله عنها لم لم تصلح لها الطريق يا عمر؟ وكان يقول رحم الله امرءًا أهدى إلىّ عيـوبي وكان يقول لأهله: اتقـوا الله يا آل عمـر فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطيـر إلى اللحمة وكان يخاف من الله خوف مـن يعتقد أن النار لم تخلق إلا له وحده وكـأنه يقول: لو نادى مناد يوم القيامة كل الناس يدخلون الجنة إلا واحدًا لخشيت أن أكون أنا ذلك الواحد.

وكان يقول: والله ما قبلت الخلافة إلا كـما يقبلها المضطر أكل الميتة وإن مثلى وأمة محمد كمثل الوصى على مال اليتيم إن وجد استغنى وإن لم يجد أكل بالمعروف يرحمك الله يا أمير المؤمنين.

يا رافع راية الشـورى وحارسـها

جزاك ربك خيراً عن محبيهـا

رأى الجماعة لا تشـقى البلاد بـه

رغم الخلاف ورأى الفرد يشـقيها

إن جاع فى شـدة قوم شـاركتهم

فى الجوع أو تنجلى عنها غواشيها

جـوع الخـليفـة والدنيـا بقبضـته

فى الزهد منزلة سـبحان موليها

فمن يبارى أبا حفص وسـيرته

أو من يحاول للفاروق تشـبيها

يوم اشتهت زوجته الحلوى فقال لها

من أين لى ثمن الحلوى فأشـريها

ماراد عن قوتنا فالمسلمون به

أولى فقومى لبيت المال رديها

كذاك أخلاقه كانت وما عهدت

بعد النبوة أخلاق تحاكيها

هذا هو أمير المؤمنين فانظروا كيف يحاسب نفسه واعجبوا كيف يقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا؟.

فما للعيون أصبحت لا تدمع وما للآذان أصبحت لا تسمع وما للقلوب أصبحت لا تخشع وما للأبدان أصبحت لا تسجد ولا تركع.

عجبت لمن يؤمن بالقدر ثم هو يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالرزق ثم هو ينصب، وعجبت لمن يؤمن بالموت ثم هو يفرح، ثم يؤمن بالنار ثم هو يضحك، وعجبت لمن يؤمن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن لها.

يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى -رضى الله عنه- فى كتاب الإحياء:

وفى كتاب المراقبة والمحاسبة ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت، المطلع على ضمائر القلوب إذا هى هجست، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض تحركت أو سكنت، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت

وخسرت، فسبحان من عمت نعمه كافة العباد وشملت واستغرقته رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة، وغمرت فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت وبيمن توفيقه تغيرت الجوارح بالعبارات وتأدبت وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء.

أما بعد فقد قال الله تعالى: **﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾**[1]. وقال تعالى: **﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربك أحدًا﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿يوم يبعثهم الله جميعًا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره﴾**[4].

وقال تعالى: **﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾**[5].

وقال تعالى: **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا ويحذركم الله نفسه﴾**[6].

وقال تعالى: **﴿واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه﴾**[7].

فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧.
(٢) سورة الكهف الآية ٤٩.
(٣) سورة المجادلة الآية ٦.
(٤) سورة الزلزلة الآيات [٦ :٨].
(٥) سورة آل عمران الآية ١٦١.
(٦) سورة آل عمران الآية ٣٠.
(٧) سورة البقرة الآية ٢٣٥.

وأنهم سيناقشون فى الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عن السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسرته وطالت فى عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا**﴾[1].

فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولابد من شرحها وبيان حقيقتها وفضليتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعده مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق.

(المقام الأول من المرابطة والمشارطة)

اعلم أن مطلب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العاقل هو التاجر فى طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس، لأن بذلك فلاحها قال تعالى ﴿**قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها**﴾[2].

وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله وكما أن الشريك يصير خصمًا منازعًا يجاذبه فى الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانيًا ويحاسبه ثالثًا ويعاقبه

(١) سورة النساء الآية ٢٠٠.   (٢) سورة الليل الآيتان [٩ : ١٠].

أو يعاتبه رابعًا، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه فى أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء ولا خير فى خير لا يدوم، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذى لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائمًا وقد انقضى الشر، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائمًا وقد انقضى الخير ولذلك قيل:

أشد الغم عندى فى سرور　　تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فإن النفس من أنفاس العمر كجوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه آبد الآباد، فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول: للنفس ما لى بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وأنا فى أجلى، وأنعم علىّ به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوماً واحدًا حتى أعمل فيه صالحًا فاحسبى أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن

تضيعى هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمى يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد فى الخبر «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التى عملها فى تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هى وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهى الساعة التي عصى الله فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشىء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير، وهكذا الملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدى اليوم فى أن تعمرى خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التى هى أسباب ملكك ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن والحسرة لا يطاق وإن كان دون من النار وقد قال بعضهم: هب أن المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين.

أشار به إلى الغبن والحسرة وقال تعالى ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾[1]. فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته ثم ليستأنف لها وصية فى أعضائه السبعة، وهى: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه فى هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة، وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء

(١) سورة التغابن الآية ٩.

فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم أو إلى عـورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحـتقار بل عن كل فضول مسـتغنى عنه فإن الله تعالى يسأل عبـده عن فضول النظر كمـا يسأله عن فضـول الكلام، ثم إذا صرفها عـن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فـيه تجارتها وربحها وهو مـا خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخـير للاقتداء والنظر فى كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعـاظ والاستفادة وهكذا ينبغى أن يفصل الأمر عليها فى عضو عضو لا سيما اللسان والبطن، أما اللسان فلأنه منطـلق بالطبع ولا مؤنة عليـه فى الحركة وجنايتـه عظيمـة بالغيب والكذب والنميمة وتزكية النفـس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والممارة فى الكلام وغيـر ذلك. فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتـذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشـاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خـيراته فليشترط على نفـسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا فى الـذكر، فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصـمته فكرة **﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾**[1].

وأما البطن فـيكلفه ترك الشر وتقليل الأكل من الحـلال، واجتناب الشبهات ويمنعـه من الشهوات ويقتصر على قـدر الضرورة ويشترط على نفســه أنها إن خالـفت شيئًـا من ذلك عاقبـها بالمنع عن شـهوات البطن ليفوتها أكـثر مما نالته بشهواتها، وهكذا يشرط عليه فى جـميع الأعضاء واستقصـاء ذلك يطول ولا تخفى معاصى الأعضاء وطاعتـها ثم يستأنف وصيـتها فى وظائف الطاعـات التى تتكرر عليه فى اليـوم والليلة ثم فى النوافل التى يقدر عليهـا ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تـفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستـعداد لها بأسبابها، وهذه شروط يفتقر إليها فى كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أيامًا وطاوعته نفسه فى الوفاء بجـميعها اسـتغنى عن المشارطة فيـها وإن أطاع فى بعضهـا بقيت الحاجة إلى تجـديد المشارطة فيمـا بقى، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم

(١) سورة ق الآية ١٨.

جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ولله عليه فى ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشىء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق فى مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فإن النفس بالطبع متمردة على الطاعات مستعصية على العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها. ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[1]. فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهى محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير.

قال تعالى: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه﴾[2]. وهذا للمستقبل وكل نظر فى كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدى العبد فى نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن ضربتم فى سبيل الله فتبينوا﴾[3]. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾[5]. ذكر ذلك تحذيراً وتنبيهًا للاحتراز منه فى المستقبل. . .

وروى عبادة بن الصامت أنه عليه الصلاة والسلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غيًّا فانته عنه».

وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون العقل غالبًا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال لقمان: إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة.

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٥.
(٣) سورة النساء الآية ٩٤.
(٤) سورة الحجرات الآية ٦.
(٥) سورة ق الآية ١٦.

وروى شداد بن أوس عنه ﷺ أنه قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني».

ودان نفسه: أى حاسبها ويوم الدين: يوم الحساب.

وقوله أئنا لمدينون: أى لمحاسبون. وقال عمر -رضى الله عنه-: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر.

وكتب إلى أبى موسى الأشعرى حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة. وقال لكعب كيف تجدها فى كتاب الله؟ قال: ويل لديان الأرض من ديان السماء، فعلاه بالدرة وقال إلا من حاسب نفسه. فقال كعب: يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها فى التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال: من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولاً وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها.

(المرابطة الثانية المراقبة)

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض فى الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فإنها إن تركت طغت وفسدت ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها.

أما الفضيلة: فقد سأل جبريل -عليه السلام- الرسول ﷺ عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه» وقال عليه السلام «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وقد قال تعالى **﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾**[1]. وقال تعالى: **﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾**[2] وقال الله تعالى: **﴿إن الله عليكم رقيبًا﴾**[3] وقال تعالى: **﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾**[4].

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣.
(٢) سورة العلق الآية ١٤.
(٣) سورة النساء الآية ١.
(٤) سورة المعارج الآيتان [٣٢ ، ٣٣].

وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال: كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل. وقال عبد الواحد بن زيد: إذا كان سيدى رقيبًا علىّ فلا أبالى بغيره». وقال أبو عثمان المغربى: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم. وقال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال الجريري: أمرنا هذا مبنى على أصلين أن تلزم نفسك المراقبة لله -عز وجل- ويكون العلم على ظاهرك قائمًا. وقال أبوعثمان: قال لى أبو حفص: إذا جلست للناس فكن واعظًا لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك.

وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ؟ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرًا وسكينًا وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لايراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحًا ورجع الشاب والطائر حى فى يده فقال: مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك: فقال: لم أجد موضعًا لا يرانى فيه أحد إذ الله مطلع علىّ فى كل مكان. فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا: حق لك أن تكرم.

وحكى أن زليخا لما خلت بيوسف -عليه السلام- قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف: مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا تستحين من مراقبة الملك الجبار. وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت: له ألا تستحى فقال: ممن أستحى؟ وما يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مكوكبها؟

وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر، فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه.

وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه

-عز وجل- وعن مالك بن دينار قـال: جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له: ومن يسكنها؟ قال يقول الله -عز وجل- إنما يسكن عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكـروا عظمتي فراقبونى والذين انثنت أصلابهم من خشيـتى وعزتى وجلالى إنى لأهم أن أعذب أهل الأرض فإذا نـظرت إلى أهل الجوع والعطش من مـخافتـى صرفت عنهم العذاب. وسئل المحاسبى عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بقرب الرب تعالى. وقال المرتعش: المراقبة مـراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة. ويروى أن الله تعالى قال لملائـكته: أنتم موكلون بالظاهر، وأنا الرقيب على الباطن.

وقال محـمد بن على الترمـذى: اجعل مراقبـتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

وقال سهل: لم يتزين القلب بشىء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان.

وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه﴾[1]. فقال معناه ذلك لمن راقب ربه -عز وجل- وحاسب نفسه وتزود لمعاده. وسئل ذو النون بم ينال العبد الجنة؟

فقـال: بخمس: استـقامة ليس فـيها روغان، واجـتهاد ليس مـعه سهو، ومراقبة الله تعـالى فى السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل
خلـوت ولكن قـل علىّ رقيـب
ولا تحسـبن الله يغفل سـاعـة
ولا أن ما تخـفيه عنه يغـيب

(1) سورة البينة الآية ٨.

ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب
وأن غدًا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظني، فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خاليًا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت.

وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة، وقال فرقد السنجي إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحدًا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى، وقال عبدالله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إلى مكة فغرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال: يا راعي بعني شاة من هذه الغنم، فقال: أنا مملوك، فقال: قل لسيدك: أكلها الذئب، قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

(بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه قمت احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنه يراقب فلانًا ويراعي جانبه ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يشمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتقائه إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أنه ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقينًا أعني أنها خلت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته، فرب علم لا شك فيه ولا يغلب على القلب كالعلم

بالموت، فإذا استولت على القلب استعجزت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم على درجتين: الدرجة الأولى: مراقبة المقربين من الصديقين وهى مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقًا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً وهذه مراقبة لا نطول النظر فى تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب، أما الجوارح فإنها تتعطل على التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة لها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سعت السداد بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى، والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقًا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه همًّا واحداً فكفاه الله سائر الهموم، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك فقال له عاتبه: إذا مررت بى فحركنى ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظر هذا فى القلوب المعظمة لملوك الأرض حتى أن خدم الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتمل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له وقد قيل لعبدالواحد بن زيد: هل تعرف فى زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله من الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعًا حتى دخل عتبة الغلام فقال له عبدالواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة فقال: موضع كذا وكان طريقه على السوق، فقال: من لقيت فى الطريق فقال: ما رأيت أحداً.

ويروى عن يحيى بن زكريا -عليهما السلام- أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: ما ظننتها إلا جدارًا، وحكى عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يرامون وواحد جالس بعيدًا عنهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله تعالى أشهى، فقلت: أنت وحدك، فقال: معى ربى وملكانى، فقلت: من سبعة من هؤلاء فقال: من عز الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء، وقام ومشى وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه فهو لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه.

ودخل الشبلى على ابن الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكنًا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: سنور كانت لنا فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأسى الحجر لا تتحرك لها شعرة، وقال أبو عبدالله بن خفيف: خرجت من مصر أريد الرملة للقاء ابن على الروذبارى، فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد: إنه فى صور شابًا وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت إليها نظرة لعلك تستفيد منه فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتفى شيء فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة، فسلمت عليهما فما أجابانى فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله ألا رددتما على السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلى وقال: يا بن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير يابن خفيف ما أقل شغلك حتى تفرغ إلى لقائنا قال فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان، فبقيت عندها حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى فلما كان وقت العصر قلت عظنى فرفع رأسه إلىّ وقال: يابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة

أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئًا ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى ألحقهما أن يعظانى لعلى أن أنتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه، وقال: يابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك.

الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم على يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو من المراقبة، نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجبون إلا بعد التثبت منه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فإنهم يرون الله فى الدنيا مطلعًا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فإنك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبى أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحى منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لا عن جلال وتعظيم بل عن حياء فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء فيك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه، فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى، ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر فى العمل، أما قبل العمل فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو من هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فإن كان لله تعالى أمضاه وإن كان لغير الله استحيا من الله وأنكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه

وهمه به وميله إليه وعرفها سوء فعلها وسعيها فى فضيحتها وإنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته وهذا التوقف على بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه فإنه فى الخبر أن ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين، الديوان الأول: لم. الثانى: كيف. الثالث: لمن.

ومعنى لم: أى لم فعلت هذا، أكان عليك أن تفعله لمولاك، أو ملت إليه بشهوتك وهواك فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له: كيف فعلت هذا؟ فإن لله فى كل عمل شرطًا وحكمًا لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له: كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظن؟ فإن سلم من هذا الشر. الديوان الثالث: وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له: لمن عملت ألوجه الله خالصًا وفاء بقولك لا إله إلا الله فيكون أجرك على الله أو لمرآة خلق مثلك فخذ أجرك منه إن عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابى إذ كنت عبدا لى تأكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيرى أما سمعتنى أقول: **﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾**[1] **﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقًا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه﴾**[2]. ويحك أما سمعتنى أقول: **﴿ألا لله الدين الخالص﴾**[3] فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جوابًا وليكن الجواب صوابًا فلا يبدئ ولا يعيد إلا بعد التثبيت ولا يحرك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل وقد قال النبى ﷺ لمعاذ: «إن الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه».

وقال الحسن: كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه.

---

(١) سورة الأعراف [الآية ١٩٤]. (٢) سورة العنكبوت [الآية ١٧].

(١) سورة الزمر [الآية ٣].

وقال الحسن: -رحمه الله تعالى- عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر وقال فى حديث سعد حين أوصاه سلمان (اتق الله عند همك إذا هممت)

وقال محـمد بن على: إن المؤمن وقاف متـآن يقف عند همه ليس كما طلب ليل.

فهذا هو النظر الأول فى هذه المراقـبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفـة الحقيقيـة بأشرار الأعمال وأغـوار النفس ومكايد الشيطان فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه أبلى ولم يعرف ما يوافقه هواه وله يمين بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه فى نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم فى هذا المراقبة، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحـسبون أنـهم يحسنون صنعـا ولا تظن أن الجاهل بما يقـدر على التعلم فـيه يعذر هيهـات بل طلب العلم فريضة على كل مـسلم، ولهذا كانت ركعـتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غـير عالم؛ لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الـشيطان ومواضع الغرور فيـتقى ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فـلا يزال الجاهل فى تعب والشيطان منه فى فرح وشماتة، فنعوذ بالله من الجهل والغـفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران.

فحكم الله تعـالى على كل عبد أن يراقـب نفسه عند همـه بالفعل وسعـيه بالجارحـة فيتـوقف عن الهم وعن السعى حـتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهـوى النفس فتبقيه ويزجر القلب من الفكر فيـه وعدلهم به فإن الخطوة الأولى فـى الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث العقل والفعل يورث البوار والمقت فـينبغى أن تحسم مادة الشـر من منبعه الأول وهو الخاطر فـإن جميع مـا وراءه يتبعه، مـهما أشكل على العـبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فى ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان.بواسطة الـهوى فإن عجـز عن الاجتهاد والفكر بنفـسه

فيستضىء بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد فقد أوصى الله تعالى إلى داود عليه السلام:

«لا تسأل عنى عالمًا أسكره حب الدنيا فيقطعك من محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى» فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فإن استفاء أنوار القلوب حضرة الربوبية، فكيف يستضىء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقتيها وهى شهوات الدنيا فلتكن همة المريد أولاً فى أحكام العلم أو فى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات».

جمع بين الأمرين وهما مثلا زمان حقًا فمن ليس له عقل وازع من الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات، ولذلك قال عليه السلام: «من قارف ذنبًا فارقه عقل لا يعود إليه أبدًا» فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمى به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست فى هذه الأعمار فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق فى الخصومات الثائرة فى اتباع الشهوات وقالوا: هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذى ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفى الخبر.

(أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت)

ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.

وأسامة، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم، فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعًا لهواه معجبًا برأيه وكان ممن وصفه رسول الله ﷺ إذا قال:

(فإذا رأيت شحًّا مطاعًا وهوى متبعًا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك).

وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ﴿ولا تقف ماليس لك به علم﴾[1].

وقوله عليه السلام: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث).

وأراد به ظنًا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق -رضى الله عنه- (اللهم أرنى الحق حقًا وارزقنى اتباعه وأرنى الباطل باطلاً وارزقنى اجتنابه ولا تجعله متشابهًا على فأتبع الهوى).

وقال عيسى عليه السلام: (الأمور ثلاثة أمر استبان رشده فاتبعه، وأمر استبان غيه فاجتنبه، وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه).

وقد كان من دعاء النبى ﷺ:

(اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدنيا بغير علم).

فأعظم نعمة على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانًا على عبده: ﴿وكان فضل الله عليك عظيما﴾[2] - وأراد به العلم وقال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[3]. ﴿إن علينا للهدى﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ثم إن علينا بيانه﴾[5].

وقال: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾[6].

---

(1) سورة لأسراء الآية [٣٦].
(2) سورة النساء الآية ١١٣.
(3) سورة الأنبياء الآية ٧.
(4) سورة الليل الآية ٧.
(5) سورة القيامة الآية ٦.
(6) سورة النحل الآية ٩.

وقال على -كرم الله وجـهه-: الهوى شريك العـمى ومن التوفيق التـوقف عند الحيـرة ونعم طارد الهم اليقين وعـاقبـة الكذب الندم وفى الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق مـن صدق غيـبه ولا يعـرفك من حبيب سـوء ظن نعم الخلق التكرم والحياء سـبب إلى كل جميل وأوثق العمر التـقوى، وأوثق سبب أخذت به سـبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنيـاك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك.

وإن كنت جازعـاً على ما أصيب مما فى يديك فلا تجـزع على مالم يصل إليك واستدل على مالم يكن بما كان قائمًا الأمور أشباه والمرء يسره درك مالم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحًـا وما فاتك منها فلا تتبعه نفـسك أسفًا وليكن سرورك بما قدمت وأسـفك على ما حلقت وشغلك لآخـرتك وهمك فيمـا بعد الموت وغرضًـا من نقل هذه الكلمات قـوله، ومن التوفيـق التوقف عند الحيرة.

فإذن النظر الأول للمراقب نظره فى الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال ﷺ: «ثـلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخـاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشىء من علـمه وإذا عـرض له أمـران أحدهمـا للدنيـا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا».

وأكثـر ما ينكشف له فى حـركاته أن يكون مـباحًا ولكن لا يـعنيه فيتركه لقوله ﷺ «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

النظر الثالث: للمراقـبة عند الشروع فى العمل وذلك بتفقد كـيفية العمل ليـقضى حق الله فـيه، ويحـسن النية فى إتمامه، ويـكمل صورته ويتعـاطاه على أكمل ما يمكن وهذا مـلازم له فى جميع أحـواله فإنه لا يخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى فى جميع

ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب.

فإن كان قاعدًا مثلاً فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ: «خير المجالس ما استقبل به القبلة».

ولا يجلس متربعًا إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه، قال إبراهيم بن أدهم -رحمه الله-: جلست مرة متربعًا فسمعت هاتفًا يقول: هكذا تجالس الملوك، فلم أجلس بعد ذلك متربعًا وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التى ذكرناها فى مواضعها فكل ذلك داخل المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة.

فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح فمراقبته فى الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات وإن كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر وإن كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب.

ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لابد له من الصبر عليها ونعمة لابد له من الشكر عليها.

وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد فى كل حال من فرض الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته، ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة.

فينبغى أن يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغًا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغى أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مبغون والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى: ﴿**ولا تنس نصيبك من الدنيا**﴾[1].

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد.

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧.

كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية، وساعة مستقبلية لم تأت بعد لايدرى العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها، وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى فى حقه منها كما استوفى من الأول ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون فى وقته كأنه فى آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدرى وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر -رضى الله عنه- من قوله عليه السلام.

(لا يكون المؤمن ظاعنًا إلا فى ثلاث: تزود لمعاد، أو مرقة لمعاش، أو لذة فى غير محرم).

وما روى عنه أيضًا فى معناه (وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها فى صنع الله وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب).

فإن هذه الساعة عونًا على بقية الساعات ثم هذه الساعات التى هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذى يتناوله فيلاقيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل مركز من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام:

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون فى عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه فى كتاب الشكر، وهذا مقام ذوى الألباب وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهية.

ويلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين، وقوم يرون فى الصفة الصانع ويترقون بها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك

سببًا لتذكر أبواب من الفكر تتفتح عليهم بسببه، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيعه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله -عز وجل- فله فى النظر منه إلى الصانع مجال رحب إذا فتحت له أبواب الملكوت، وذلك عزيز جداً.

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتآسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته ويذجون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى.

وإن من ذم شيئًا خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبى ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر».

المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل

ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة فقد قال تعالى **﴿يأيها الذين آمنو اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾**(١) وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ولذلك قال عمر -رضى الله تعالى عنه-: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وفى الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال: يا رسول الله أوصنى، فقال: استوصت أنت، فقال: نعم، قال: إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشد فأمضه وإن كان غيًا فانته عنه»

وفى الخبر ينبغى للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى **﴿وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾**(٢) والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقد قال النبى ﷺ: «إنى لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة».

وقال الله تعالى: **﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾**(٣).

---

(١) سورة الحشر الآية ١٨. (٢) سورة النور الآية ٣١.

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠١.

وعن عمـر -رضى الله عنه- إنه كان يضرب قدمـيه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه: ماذا فعلت اليوم، وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبـد من المتقين حـتى يحاسب نفسـه أشد من مـحاسبـة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل.

وروى عن عائشة -رضى الله تعالى عنها- أن أبا بكر -رضوان الله عليه- قال لها عن الموت:

ما أحـد من الناس أحب إلىّ من عـمر ثم قـال لها: كـيف قلت؟ فأعادت عليه ما قال، فقـال: لا أحد أعز علىّ من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها.

وحديث أبى طلحة حيث شغله الطائر فى صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندمًا ورجاء للعوض مما فاته».

وفى حديث ابن سـلام أنه حمل حزمة من حطب فـقيل له: يا أبا يوسف قـد كان فى بنيك وغلمـانك ما يكفـونك هذا فـقال: أردت أن أجرب نفـسى هل تنكره وقال الحسن: المؤمن قوام على نـفسه يحاسـبها الله، وإنما خف الحساب على قـوم حاسبوا أنفسـهم فى الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيـامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محـاسبة ثم فسر المحاسبة.

فقال: إن المؤمن يفجـؤه الشىء يعجبه فيقـول: والله إنك لتعجبنى وإنك من حاجـتى ولكن هيهات حـيل بينى وبينك، وهذا حسـاب قبل العمل، ثم قال ويفـرط منه الشىء فيرجع إلى نفسه فـيقول: ماذا أردت بهذا والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدًا إن شاء الله.

وقال أنس بن مـالك: سمعت عـمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يومًا وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطًا فسمعته يقول وبينى وبينه جدار وهو فى الحـائط عمر بن الخطاب أميـر المؤمنين بخ بخٍ والله لنتقين الله أو ليعذبنك وقال الحسن فى قوله تعالى:

﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾[1] قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتى؟ ماذا أردت بأكلتى؟ ماذا أردت بشربتى؟ والفاجر يمضى قدمًا لا يعاتب نفسه، وقال مالك بن دينار -رحمه الله تعالى- رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدًا وهذا من معاتبة النفس كما سيأتى فى موضعه وقال ميمون بن مهران:

التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح وقال إبراهيم التيمى:

مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها فقلت لنفسى: يا نفس أى شىء تريدين فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا، قلت: فأنت فى الأمنية فاعمل، وقال مالك بن دينار:

سمعت الحجاج يخطب وهو يقول :

رحم الله امرءً حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره رحم الله امرءً آخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرءً نظر فى مكياله، رحم الله امرءً نظر فى ميزانه فمازال يقول حتى أبكانى.

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار، ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا، ما حملك على ما صنعت يوم كذا.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب

---

[1] سورة القيامة الآية (٢).

فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار فى الدنيـا مع الشركاء فى آخـر كل سنة أو شهـر أو يوم حرصًـا منهم على الدنيا وخوفًا من أن يفوتهم منها مـا لو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أيامًـا قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعـلق به جلب الشقاوة والسعادة أبد الآباد ما هذه المآصلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة الـتوفيق نعوذ بالله من ذلك، ومعنى المحـاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسـران ليثبت له الزيادة من النقصـان فإن كـان من فضل حاصل اسـتوفـاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل.

فكذلك رأس مـال العبـد فى دينه الفـرائض وربحـه النوافل والفضائل، وخسـرانه المعاصى وموسم هذه التجارة جلية الـنهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسـبها على الفرائض أولاً فإن أداها على وجهها شكر الله تعـالى عليه ورغـبها فـى مثلهـا وإن فوتها من أجـلها طالبـها بالقضـاء وإن أداها ناقصة كلفـها الجيـران بالنوافل، وإن ارتكب معصـية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الجنيه والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصـان حتى لا يعبث فى شىء منها فينبغى أن يتقـى غيبـة النفس ومكرها فـإنها خداعـة ملبسـة مكارة فليطالبـها أولاً بتصحيـح الجواب عن جميع ما تكلم به طوال نهاره وليـتكفل بنفسه من الحساب مـا لا سيتولاه غيـره فى صعيد القيـامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقـعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم سكن؟

فـإذا عرف مـجمـوع الواجب على النفس وصلح عنده قـدر أدى الواجب فيـه كان ذلك القـدر محسـوبًا له فيظهـر له الباقى على نفـسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه.

كما يكتب البـاقى الذى على شريكه على قلبه وفى جـريدة حسابه ثم النفس غـريم يمكن أن يسـتوفى منه الديون أمـا بعـضهـا فبـالغرامـة والضمـان وبعضهـا يرد عينه وبعضـها بالعقوبـة لها على ذلك ولا يمكن

شىء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقى عن الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يومًا يومًا وساعة ساعة.

فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقة وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هى واحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال: يا ويلتى ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيًّا عليه فإذا هو ميت فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى، فهكذا ينبغى أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة ولو رمى العبد بكل معصية حجرًا فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة قريبة من عمره ولكن يتساهل فى حفظ المعاصى والملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه.

المرابطة الرابعة
فى معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير فى حق الله تعالى فلا ينبغى أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغى أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته، هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة.

فقد روى عن منصور بن إبراهيم أن رجلاً من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست.

وروى أنه كان فى بنى إسرائيل رجل يتعبد فى صومعته فمكث كذلك زمانًا طويلاً فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال: ما هذا الذى أريد أن أصنع؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال: هيهات هيهات رجلى خرجت تريد أن تعصى الله تعود معى فى صومعتى لا يكون والله ذلك أبداً فتركها معلقة فى الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك، وأنزل فى بعض كتبه ذكره، ويحكى عن الجنيد قال: سمعت ابن الكريبى يقول: أصابتنى ليلة جنابة فأصبحت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت فى نفسى تأخراً وتقصيراً فحدثتنى نفسى بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أقرأ أو أدخل الحمام ولا أشق على نفسى فقلت وا عجباه أنا أعامل الله فى طول عمرى، فيجب له على حق فلا أجد فى المسارعة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا فى مرقعتى هذه وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها فى الشمس.

ويحكى أن غذوان وأبا موسى كانا فى بعض مغاريهما فتكشفت جارية فنظر إليها غذوان فرفع يده فلطم عينيه حتى بقرت وقال: إنك بلحاظة إلى ما يضرك ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طوال حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش.

ويحكى أن حسان بن سنان مر بغرفة فقال: متى بنيت هذه، ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك لأعاقبنك بصوم سنة فصامها.

وقال مالك بن ضغيم: جاء رباح القيسى يسأل عن أبى بعد العصر فقلنا: إنه نائم.

فقال: نوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟

ثم ولى منصرفًا فأتبعناه رسولاً وقلنا له: ألا نوقظه لك فجاء الرسول وقال: هو أشغل من أن يفهم عنى شيئا أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول: أقلت وقت نوم هذه الساعة أفكان هذا عليك ينام الرجل متى شاء وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم تتكلمين بما لا تعلمين، أما إن لله على عهدًا لا أنقضه أبدًا لا أوسدك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل سوأة لك أما تستحين كم توبخين وعن غيك لا تنتهين .

قال: وجعل يبكى وهو لا يشعر بمكانى فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته.

ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد فقام سنة لم ينم فيها عقوبة الذى صنع .

وعن طلحة -رضى الله عنه قال-:

انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء فكان يقول لنفسه: ذوقى ونار جهنم أشد حرًا أجيفة بالليل بطالة بالنهار فبينما هو كذلك إذ أبصر النبى ﷺ فى ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتنى نفسى فقال له النبى ﷺ: ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قال لأصحابه تزودوا من أخيكم فجعل الرجل يقول له: يا فلان ادع لى يا فلان ادع لى فقال النبى ﷺ عمهم فقال: اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبى ﷺ يقول: اللهم سدده، فقال الرجل: اللهم اجعل الجنة مآبهم.

وقال حذيفة بن قتادة: قيل لرجل كيف تصنع بنفسك فى شهواتها؟ فقال: ما على وجه الأرض نفس أبغض إلىّ منها، فكيف أعطيها شهواتها ودخل بن السماك على داود الطائى حين مات وهو فى بيته على التراب فقال: يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن، وعذبت نفسك قبل أن تعذب فاليوم ترى ثواب ما كنت تعمل له.

وعن وهب بن منبه

أن رجلاً تعبـد زمانًا ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقـام سبعين سبتًـا يأكل فى كل سبت إحدى عـشرة تمرة، ثم سأل حاجـة فلم يعطها فرجع إلى نفسه، وقال: منك أتيت لو كـان فيك خير لأعطيت حاجتك فنزل إليه ملك وقال: يا بن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك.

وقال عبـدالله بن قيس: كنا فى غزاة لنا فـحضر العدو فـصيح فى الناس فـقامـوا إلى المصاف فى يـوم شديد الريح وإذا رجل أمـامى وهو يخاطب نفسه ويقول: أى نفسى ألم أشهـد مشهد كذا وكذا؟ فقلت لى: أهلك وعيالك فـأطعتك ورجعت، ألم أشهـد مشهد كـذا وكذا؟ فقلت لى: أهلك وعيـالك فأطعـتك ورجعت والله لأعرضنـك اليوم على الله أخذك أو تركك فقلت: لأرفضه اليوم فـرضته فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ثـم إن العدو حـمل على الناس فـانكشـفـوا فكان فى موضعه حتى انكشفـوا مرات وهو ثابت يقاتل فوالله مازال ذاك رأيه حتى رأيته سريعًا فـغددت به ستين أو أكثر من ستين طعنـة وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشـتغل قلبه فى الصـلاة بطائر فى حائطه فتصـدق بالحائط كفارة لـذلك، وأن عمر كان يضـرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقـول ماذا عملت اليوم؟

وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصـباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقـول لنفسه: ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا.

وأنكر وهيب بن الورد شيئًا على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه ويحك إنما أريد بك الخير ورأى محمد بن بشر داود الطائى وهو يأكل عند إفطاره خبزًا بغير ملح فقال له: لو أكلته بملح فقال: إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحًا مادام فى الدنيا.

فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير فى أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار ويغوا عليك ثم تهمل نفسك وهى أعظم عدو لك وأشد طغيانًا عليك وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الأخرة وأن فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له ونفسك هى التى تنغص عليك عيش الآخرة فهى بالمعاقبة أولى من غيرها.

المرابطة الخامسة المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت وإن رآها تتوانى بحكم لكسل فى شىء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغى أن يؤديها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنونًا من الوظائف جبرًا لما فات منه وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حيث فاتته صلاة العصر فى جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة وأخر ليلة صلاة

المغرب حتى طلع كوكبًا فأعتق رقبتين وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة وكان بعضهم يجعل له على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيًا أو التصدق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها، فإن قلت إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فى سبيل معالجتها.

فأقول: سبيلك فى ذلك أن تسمعها ما ورد فى الأخبار من فضل المجتهدين ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة.

فتلاحظ أقواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول: إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعًا، إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين، فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شىء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد وقد انقضى تعبهم وبقى ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتع نفسه أيامًا قلائل بشهوات مكدرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد نعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضلهم ما يحرك رغبة المريد فى الاجتهاد واقتداء بهم فقد قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أقوامًا يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى».

قال الحسن: أجهدتهم العبادة قال الله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾[1] قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر

[1] سورة المؤمنون الآية ٦٠.

ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله، وقال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله». ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته: ما بال عبادى مجتهدين فيقولون: إلهنا خوفتم شيئًا فخافوه وشوقتهم إلى شىء فاشتاقوا إليه، فيقول الله تبارك وتعالى: فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهاد وقال الحسن: أدركت أقوامًا وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شىء منها أدبر ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئًا قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل قيام على أطرافهم يفترشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا فى شكر وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم والله مازالوا كذلك، وعلى ذلك، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة.

ويحكى أن قومًا دخلوا على عمر بن عبدالعزيز يعودونه فى مرضه وإذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال عمر له: يا فتى ما الذى بلغ بك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض، فقال: سألتك بالله ألا صدقتنى، فقال: يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندى زهرتها وحلاوتها واستوى عندى ذهبها وحجرها وكأنى أنظر إلى عرش ربى والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهارى وأسهرت ليلى وقليل حقير كل ما أنا فيه من جنب ثواب الله وعقابه.

وقال أبو نعيم: كان داود الطائى يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له فى ذلك فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يومًا فقال: إن فى سقف بيتك جزعًا مكسوراً فقال: يا بن أخى إن لى فى البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام.

وقال محمد بن عبدالعزيز: جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنيه ولا يساره فقيل له فى ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة.

وقالت امرأة مسروق: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت: والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكى رحمة له.

وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يومًا واحداً الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله فى جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما نتقى أطايب الثمر، وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ويصوم فى الحر حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذب نفسك؟ فيقول: كرامتها أريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له: إن الله -عز وجل- لم يأمرك بكل هذا، فقال: إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئًا إلا جئت به، وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فكان يصلى جالسًا ألفا ركعة فإذا صلى العصر احتبس ثم قال: عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك؟

عجبت للخليقة كيف أنست بسواك، بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك وكان ثابت البنان قد حببت إليه الصلاة فكان يقول: اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلى لك فى قبره فائذن لى أن أصلى فى قبرى.

وقال الجنيد:

ما رأيت أعبد من السرى أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رئى مضجعًا إلا فى علة الموت.

وقال الحارث بن سعد:

مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه فى ذلك، فقال: وما هذا عندما يراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم فبكى القوم عن آخرهم.

وعن ابن محمد المغازلى قال: جاور أبو محمد الجريرى بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمد رجليه فعبر عليه أبو بكر الكسائى فسلم عليه وقال له: ياأبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال: على صدق باطنى فأعاننى على ظاهرى فأطرق الكسائى ومشى مفكراً.

وعن بعضهم قال: دخلت على فتح الموصلى فرأيته قد مد كفيه يبكى حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطها صفرة، فقلت: ولم بالله يا فتح بكيت الدم فقال: لولا إنك أحلفتنى بالله ما أخبرتك.

نعم بكيت دمًا فقلت له: على ماذا بكيت الدموع فقال: على تخلفى عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صلحت لى الدموع قال: فرأيته بعد موته فى المنام، فقلت: ما صنع الله بك؟ قال: غفر لى قلت له: فماذا صنع فى دموعك فقال: قربنى ربى -عز وجل- وقال لى: يا فتح الدموع على ماذا، قلت: يا رب على تخلفى عن وجب حقك، فقال: والدم على ماذا؟ قلت: على دموعى أن لا تصلح لى فقال لى: يا فتح ما أردت بهذا كله، وعزتى وجلالى لقد صعد حافظاك أربعين أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة وقيل: إن قومًا أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا إلى راهب منفرد بين الناس فنادوه فأشرف عليهم صومعة فقالوا: يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه إلى السماء فعلم القوم ما أراد فقالوا: يا راهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا؟

فقال: سلوا ولا تكثروا فإن النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث.

فعجب القوم من كلامه فقالوا: يا راهب علام الخلق غدا عند مليكهم فقال: على نياتهم فقالوا: أوصنا. فقال: تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه فى صومعته.

وقال عبد الواحد بن زيد: مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبنى فناديته الثاينة فلم يجبنى فناديته الثالثة فأشرف على وقال: يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله فى

سمائه وعظمه فى كبريائه وصبر علىٰ بلائه ورضى بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر فى حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا فكلب عقور حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم فقلت: يا راهب فما الذى قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه؟

فقال: يا أخى لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها، لأنها محل المعاصى والذنوب والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله من ذنبه، وأقبل على ما يقربه من ربه.

وقيل لداود الطائى: لو سرحت لحيتك فقال: إنى إذن لفارغ وكان أويس القرنى يقول: هذه ليلة الركوع فيحى الليل كله فى ركعة، وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود.

وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه: لو رفقت بنفسك قال: الرفق أجلبنى دعينى أتعب قليلاً وأتنعم طويلاً، وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا.

وقال سفيان الثورى: عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقى.

وقال عبد الله بن داود: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل وكان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم الف ركعة ثم يقول لنفسه: قومى يا مأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان يبكى ويقول: ذهب نصف عملى. وكانت ابنة

الربيع بن خيثم تقول له: يا أبت ما لى أرى الناس ينامون وأنت لا تنام، فيقـول: يا ابنتاه إن أباك يخاف البيـات ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسـهر نادته يا بنـى لعلك قتلت قـتيـلاً، قال: نعم يا أمـاه قالت: فمن هو حتى تطلب أهله فيـعفوا عنك فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك فيقول: يا أماه هى نفسى.

وعن عمـر بن أخت بشر بن الحرث قـال: سمعت خـالى بشر بن الحرث يقول لأمى: يا أختى جوفى وخـواصرى تضرب على فقالت له: أمـا يا أخى تأذن لى حـتى أصلح لك قليل حسـاء بكف دقـيق عندى تتحسـاه يرم جوفك فـقال لها: ويحك أخـاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق؟ فلا أدرى ايش أقول فبكت أمه وبكى مـعها وبكيت معهم. قال عمر ورأت أمى ما ببشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسًا ضعيفًا فقالت له أمى: يا أخى ليت أمك لم تلدنى فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك فسـمعتـه يقول لها وأنا: فليت أمى لم تلدنى وإذ ولـدتنى لم يدر ثديها على.

قال عمر: وكانت أمى تبكى عليه الليل والنهار وقال الربيع: مكانه حـتى صلى الظهر ثـم قال: إلى الصـلاة حتى صـلى العصـر ثم جلس موضـعه حـتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حـتى العشـاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلـس فغلبته عيناه فـقال: اللهم إنى أعوذ بك يا أبا عبدالله مالى أراك كأنك مريض فقال: وما لأويس أن لا يكون مريضًا يطعم المريض وأن النار تسعر تحته كـيف ينام بينهما وقال رجل من النساء أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فـقعدت أرقبه فلف نفسه

بعباءة ثم رمى نفسه فلم ينقلب من جنب إلىّ فقلت له: رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعًا ثم لم تجدد الوضوء، فقالت: كنت اللية كله جائلاً فى رياض الجنة أحيانًا وفى أودية النار أحيانًا فهل فى ذلك نوم.

وقال ثابت البنانى: أدركت رجالاً كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتى فراشه إلا حبواً، وقيل: مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء فى إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل: كان يقرأ، ﴿قل هو الله أحد﴾[1] إحدى وثلاثين الف مرة أو أربعين الف مرة شك الراوى، وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت: رجل أصيب بمصيبة منكر الطرف منخفض الصوت طب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع، ولقد قالت له أمه: ما هذا الذى تصنع بنفسك تبكى الليل عامته لا تسكت لعلك يا بنى أصبت نفسًا لعلك قتلت قتيلاً؟

فيقول: يا أماه أنا أعلم بما صنعت نفسى، وقيل لعامر بن عبدالله: كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر، فقال: هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول: ما رأيت مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال: أذهب حر النار النوم فما ينام حتى إذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال: من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى. وقال بعضهم:

---

(١) سورة الإخلاص الآية (١).

صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام الليل ولا النهار. ويروى عن رجل من أصحاب على بن أبى طالب -رضى الله تعالى عنه- أنه قال: صليت خلف على -رضى الله تعالى عنه- الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئًا يشبهم كانوا يصبحون شعثًا غبرًا صفرًا قد باتوا لله سجدًا وقيامًا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين يعنى من كان حوله وكان أبو مسلم الخولانى قد علق سوطًا فى مسجد بيته يخوف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومى فوالله لأزحفن بك حتى يكون الكلل منك لا منى فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول: أنت أولى بالضرب من دابتى، وكان يقول: أيظن أصحاب محمد ﷺ ان يستأثروا دوننا كلا والله لنزاحمهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً.

وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدًا ما وجد متزايد، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد وإذا كان فى الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام وإنه مات وهو ساجد وإنه كان يقول: اللهم إنى أحب لقاءك فأحب لقائى.

وقال القاسم بن محمد غدوت يومًا وكنت إذا غدوت بدأت عائشة -رضى الله عنها- أسلم عليها فغدوت يومًا إليها فإذا هى تصلى صلاة

الضحى، وهى تقرأ ﴿فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾[1] وتبكى وتدعو وتردد الآية فقمت حتى مللت وهى كما هى فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كما هى تردد الآية وتبكى وتدعو. وقال محمد بن إسحاق: لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجًا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء.

وقال بعضهم:

ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل. وقال على بن أبى طالب -كرم الله وجهه- سمات الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين. . وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهًا فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره، وكان عامر بن عبد القيس يقول: إلهى خلقتنى ولم تؤامرنى وتميتنى ولا تعلمنى وخلقت معى عدواً وجعتله يجرى منى مجرى الدم وجعلته يرانى ولا أراه ثم قلت لى استمسك، إلهى كيف أستمسك وفى الدنيا الهموم والأحزان وفى الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرح، وقال جعفر بن محمد: كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد: فحدثت به بعض البصريين فقال: لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين

---

(١) سورة الطور الآية ٢٧.

الصيحتين حتى صاح. وعنهم القاسم بن راشد الشيبانى قال: كان دمعه نازلاً عندنا بالمحصب. وكان له أهل وبنات، وكان يقوم فيصلى ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلا تقومون فترحلون فيواثبون فيسمع من ههنا داع ومن ههنا قارئ ومن ههنا متوضئ فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى.

وقال بعض الحكماء: إن لله عبادًا أنعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتًا للحكمة وتوابيت للفطنة وخزائن للقدرة فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول فى الملكوت وتلوذ محجوب الغيوم ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفًا أن يصفه فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسناوهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعًا وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء. وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس إذا هبطت إلى واد هناك فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوى عال فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية : **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا .. إلى قوله تعالى: ويحذركم الله نفسه﴾**[1] قال: فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشيًا عليه فقلت وا أسفاه هذا لشقائى ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول: أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠.

بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض الغافلين ثم قال: خشعت قلوب الخائفين وإليك فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يده فقال: ما لى وللدنيا وما للدنيا ولى عليك يا دنيا بأبناء جنسك وإلا فى نعيمك إلى محبيك فاذهبى وإياهم فاخدعى ثم قال: أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة فى التراب يبلون وعلى الزمان يفنون فناديته يا عبدالله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه؟ ثم قال: أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ثم لها عنى ساعة وقرأ ﴿**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**﴾(1) ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخر مغشيًا عليه فقلت: قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول: من أنا، ما خاطرى، هى لى أساءت من فضلك وجللنى بسترك واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك فقلت له: بالذى ترجوه لنفسك وتثق به ألا كلمتنى فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من أوبقته ذنوبه إنى فى هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدنى فلم يجد عونًا على ليخرجنى مما أنا فيه غيرك فإليك عنى يا مخدوع فقد عطلت على لسانى وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى وأنا أعوذ بالله من شرك ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه ويتفضل على برحمته قال: فقلت: هذا ولى الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا فانصرفت وتركته، وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير فى مسير لى إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لى: يا

(1) سورة الزمر الآية ٤٧.

هذا قم فإن الموت لم يمت ثم هام على وجهه فاتبعتـه فسمعته وهو يقول كل نفس ذائقة الموت اللهم بارك لـى فى الموت فقلت: وفيمـا بعد الموت فقـال: من أيقن بما بعـد الموت شد مئـذر الحذر ولم يكن ثم فى الـدنيا مسـتقـر له قال: يا من لوجهـه عنت الوجوه بيض وجـهى بالنظر إليك واملأ قلبى من المحبة لك وأجرنى مـن ذل التوبيخ غداً عندك فقد آن لى الحيـاء منك وحان لى الرجوع من الإعـراض عنك ثم قال: لولا حلمك لم يسـعنى أجلى ولولا عـفوك لم ينبـسط فـيمـا عندك أملى ثم مـضى وتركنى وقد أنشدوا فى هذا المعنى:

نحيل الجسم مكتئب الفـؤاد ... تراه بقمـة أو بطـن وادى

ينـوح على معاصٍ فاضحـات ... يكدر ثقلها صفو الرقـاد

فإن هاجت مخـاوفه وزادت ... فدعوته أغثنى يا عمـادى

فأنت بمـا الاقيه عليـم ... كثير الصفح عن ذلل العبـاد

وقيل أيضًا:

ألذ من التلذذ بالغـوانى ... إذا أقبلن فى حلل حسـان

منيب فر من أهل ومـال ... يسيح إلى مكان من مكـان

لتحمل ذكره ويعيش فردا ... ونظفر فى العبادة بالأمـانى

تلذذه التـلاوة أين ول ... وذكر بالفوائد وباللسـان

وعند الموت يأتيه بشـير ... يبشر بالنجاة من الهـوان

فيدرك ما أراد وما تمنـى ... من الراحات فى غرف الجنان

وكان كـرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مـرات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقـيل له: قد أجهدت نفسك فقال: كم

عمر الدنيا؟ فقيل سبعة آلاف سَنة، فـقال: كم مقدار يوم القيامة؟ فقيل: خمسون ألف سنـة، فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعـمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعنى إنك لو عـشت عمر الدنيـا واجتهدت سـبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحـد كـان مقـداره خمـسين ألف سنة لما كـان ربحك كثيرا وكنت بالرغـبة فيه جدير فكيف وعمرك قـصير والآخرة لا نهاية لها فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فمـهمـا تمردت نفسك علـيك وامتنعت من المواظبـة على العبـادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجـود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أفجع فى القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سـماع أحوال هؤلاء فإن لم تكن إبل فمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون فى زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذو البصائر فى الدنيا وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ولا ترضى لهـا أن تنخرط فى سلك الحمقى وتقنع بالتـشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس ألا تستنكفى أن تكونى أقل من امرأة فاحـسى برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها، ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات.

فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لهـا وشدت عليهـا درعهـا وخمـارها ثم قالت: إلهى قـد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهى هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ أم

رددتها على فأعزى وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتنى وعزتك لو انتهرتنى عن بابك ما برحت لما وقع على نفسى من وجودك وكرمك.

ويروى عن عفرة أنها كانت تحى الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان فى السحر نادت بصوت لها محزون إليك قطع العابدون دجى الليالى يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فيك يا إلهى أسألك لا بغيرك أن تجعلنى فى أول زمرة السابقين وأن ترفعنى لديك فى عليين من درجة المقربين وأن تلحقنى بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تخر ساجدة فيسمع لها وصية ثم لا تزال تدعو وتبكى إلى الفجر.

وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لى لو أتيناها إذ خلت فأمرناها بالرفق بنفسها فقال: أنت وذاك قال: فأتيناها فقلت لها: لو رفقت بنفسك واقتصرت من هذا البكاء شيئًا فكان لك أقوى على ما تريدين قال: فبكت ثم قالت: والله لوددت أن أبكى حتى تنفد دموعى ثم أبكى دمًا حتى لا تبقى قطرة من دم فى جارحة من جوارحى وأنى لى بالبكاء فلم تزل تردد وأنى لى بالبكاء حتى غشى عليها.

وقال محمد بن معاذ: حدثتنى امرأة من المتعبدات قالت: رأيت فى منامى كأنى دخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت: ما شأن أهل الجنة قيام فقال لى قائل: خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى زخرفت شعوانة الجنان لقدومها فقلت: ومن هذه المرأة فقيل: أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شعوانة قالت: فقلت: أختى والله قالت فبينما

أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبــة تطيـر بها فى الهواء فلما رأيتهـا ناديت يا أختى أمــا ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فـألحقنى بك قالت: فتبسمت إلى وقالت: لم يأن لقدومك ولكن احفظى عنى اثنتين: ألزمى الحزن من قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولا يضرك متى وقال عبدالله بن الحسن: كانت له جارية روميــة، وكنت بها معجبًا فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتمستها فلم أجدها فقمت أطلبها فإذا هى ســاجدة وهى تقول: بحـبك لى إلا ما غفـرت لى ذنوبى فقلت لها: لا تقـولى بحبك لى ولكن قـولى: بحبى لك، فقـالت: يا مولاى بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام وبحبه لى أيقظ عينى وكثير من خلقه نيام.

وقال أبو هاشــم القرشى: قدمت علـينا امرأة من أهل اليـمن يقال لها: سرية فنزلت فى بعض ديارنا قـال: فكنت أسمع لها من الليل أنينًا وشهيـقًا فقلت يومًا لخادم لى: أشـرف على هذه المرأة ماذا تصنع؟ قال: فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهى مستقبلة القبلة تقول: خلقت ســرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحـوالك لهــا حـسنة، وكل بلائـك عندها جــميل وهى مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على مـعاصيك فلتة بعد فلتة أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها، وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير.

وقال ذو النون المصرى: خـرجت ليلة من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقـبل علىّ وهو يقول **﴿وبدا لهم من الله مــا لم يكونوا يحتسبون﴾**[1]. ويبكى فلما قـرب منى السواد إذا هى امـرأة عليها جـبة

---

(١) سورة الزمر الآية ٤٧.

صوف وبيدها ركـوة فقالت لى: من أنت غير فـزعة منى؟ فقلت: رجل غريب فقالت: يا هذا وهل يوجد مع الله غـربة؟ قال: فبكيت لقولها لى فقـالت لى: مـا الذى أبكاك؟ فقلت: قـد وقع الدواء على داء قـد قرح فأسـرع فى نجاحه قالـت: فإن كنت صادقًا فلـم بكيت؟ قلت: يرحمك الله، والصادق لا يبكى قـالت: لا، قلت: ولـم ذاك؟ قالت: لأن البكاء راحة القلب فسكت متعجبًا من قولها.

وقال أحمد بن على: اسـتأذنا على عفرة، فحجـبتنا فلازمنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فـسمعتها وهى تقول: اللهم إنى أعوذ بك ممن جـاء يشغلنى عن ذكرك، ثم فـتحت الباب ودخلنا عليـها فقلنا لها: يا أمة الله ادعى لنا فقـالت: جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة، ثم قالت لنا: مكث عطاء السلمى أربعين سنة فـكان لا ينظر إلى السماء فخانت منه نظرة فخر مغشيًا عليـه فأصابه فتق فى بطنه فيا ليت عفرة إذا رفعت رأسها لـم تعصى ويا ليتها إذا عصت لم تعد.

وقـال بعض الصالحين: خـرجت يومًـا إلى السـوق ومعى جـارية حبشية فـاحتبستها فى موضع بناحـية السوق وذهبت فى بعض حوائجى وقلت: لا تبرحى حـتى أنصرف إليك قـال: فانصرفت فـلم أجدها فى الموضع فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجـهى فقالت: يا مولاى لا تعـجل على إنك أجلستنى فى موضع لـم أر فيه ذاكرًا لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها: أنت حرة فقالت: ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لى أجران وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما.

وقال ابن العلاء السعدى: كانت لى ابنة عم يقال لها: بريرة تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها: انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعزلها فى كثرة البكاء قال: فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت؟ قالت أصبحنا أضيافًا منيخين بأرض غربة نتتظر متى ندعى فنجيب فقلنا لها: كم هذا البكاء؟ قد ذهبت عيناك منه فقالت: إن يكن لعينى عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منها فى الدنيا، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدها بكاء أطول من هذا ثم أعرضت قال: فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شىء غير ما نحن فيه.

وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى فإذا جاء الليل تقول: هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى ختى تصبح.

وقال أبو سليمان الدارانى: بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها، وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت: ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت: جزاؤه أن تصوم له غداً.

وكانت شعوانة تقول فى دعائها: إلهى ما أشوقنى إلى لقائك وأعظم رجائى لجزائك، وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك الآملين، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين، إلهى إن كان دنا أجلى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذت فمن أعدل منك هنالك إلهى قد جرت على نفسى

فى النظر لها وبقى لهـا حسن نظرك، فالويل لها إن لم تسـعدها، إلهى إنك لم تزل بى براً أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى بإحسانه أن يسعفنى عند مماتى بغفرانه، إلهى كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى إلا الجـميل فى حياتى، إلهى إن كانت ذنوبى قد أخافتنى فإن مجيئى لك قد أجارته فتول من أمرى ما أنت أهله وعـد بفضلك على من غـره جـهله، إلهى لو أردت إهانتى لما هديتنى ولو أردت فضيحتى لم تسترنى فمتعنى بما له هديتنى وأدم لى ما به سترتنى إلهى أظنك تردنى فى حاجة أفنيت فيها عمرى، إلهى لولا ما قرفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك.

وقال الخواص: دخـلنا على رحلة العابدة وكانت قد صـامت حتى اسودت، وبكت حتى عميت، وصلت حتى أقعدت وكانت تصلى قاعدة فسلـمنا عليهـا ثم ذكرناها شـيئًا من العـفو ليـهون عليـها الأمـر قال: فشهقت، ثم قالت: علمى بنفـسى فرح فؤادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئًا مذكوراً ثم أقبلت على صلاتها.

فـعليك إن كنت من المرابـطين المراقـبين لنفـسك أن تطالع أحـوال الرجال والنساء من المجتهـدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك، وإياك أن تنظر إلى أهل عـصـرك فإنك إن تطع أكـثـر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله، وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وإن أردت مزيدًا فعليك بالمواظبة على مطالعة كـتاب «حلية الأولياء» فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه

يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك، وقالت: إنما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك إلا ما يجرى عليهم، فإن المصيبة إذا عمت طابت فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها وقل لها أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا أعلى مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم لحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبى فى سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج فى نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت أم تتركينى موافقتهم وتستجهلينهم فى صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفًا من الغرق، وعذاب الغرق لا ينادى إلا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت؟ ولأهل النار شغل شاغلى الالتفات إلى العموم والخصوص ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا: **﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾**[1] فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها الاجتهاد فاستعصت أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفسها لعلها تنزجر عن طغيانها.

(المرابطة السادسة فى توبيخ النفس ومعاتبتها)

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن

(١) سورة الزخرف الآية ٢٣.

لذاتها فإن أهملتها جمحت وشـردت ولم تظفر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعـاتبة والعزل والملامـة كانت نفسك هى الـنفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصـير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغـفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولاً بوعظ نفسك.

أوصى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى وقال تعالى: **﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾**[1].

وسبـيلك أن تقبل عليها فـتقرر عندها جـهلها وغباوتهـا وأنها أبدًا تتعـزز بفطنتها وهوايتهـا ويشتد أنفهـا واستنكافها إذا نسـبت إلى الحمق فتـقول لهـا: يا نفسى ما أعظم جـهلك تدعين الحكمة والذكـاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وجمعًا، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وإنك صـائرة إلى إحداهـما على القـرب فـمالك تفـرحين وتضـحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غدا فأراك ترين الموت بـعيدًا ويراه الله قريبًا أمـا تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن البعـيد ما ليس بآت أما تعلمين أن الموت يـأتى بغتة من غير تقـديم رسول ومن غير مواعـدة ومواطأة وأنه لا يأتى فى شىء دون شىء ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل دون نـهـار ولا يأتى فى الصـبـا دون الشـبـاب ولا فى الشباب دون الصبـا، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فـإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فـجأة ثم يفضى إلى الموت فمالك لا تستعدين للموت.

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥.

وهو أقرب إليك من كل قريب أما تتدبرين قوله تعالى: **﴿اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم﴾**[1] ويحك يا نفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حيائك ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطقين عذابه هيهات هيهات جربى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس أوفى بيت الحمام أو قربى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح فى أجلها وتحصيلها من وجه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك مع كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تعديل لها، وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، ويحك يانفس ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك: ومولاك: **﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾**[2] وقال فى أمر الآخرة، **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾**[3] فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها فكذبتيه بأفعالك وأصبحت تتكالبين على

(١) سورة الأنبياء [١ : ٣]. (٢) سورة هود الآية ٦.
(٣) سورة النجم.

طلبها تكالب المدهوش المستهتر ووكل أمر الأخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار.

ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات. أتحسبين أنك تتركين سدى ألم تكونى نطفة من منى يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك أما تتفكرين أنه لماذا خلقك من نطفة فقدرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه فى قوله، ثم إذا شاء أنشرك فإن لم تكونى مكذبة فمالك لا تأخذين حذرك ولو أن يهوديًا أخبرك فى ألذ طعامك بأنه يضرك فأمرضك فصبرت عنه وتركتيه وجاهدت نفسك فيه، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى فى كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم، والعجيب أنه لو أخبرك طفل بأن فى ثوبك عقربًا لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبى من جملة الأغبياء، أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يومًا أو أقل ما هذه أفعال العقلاء، بل لو انكشفت للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فيما إذا أمنت استعجال الأجل وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة

أفتظنين أن من يطعم الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها، إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك.

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة فأقام فيها سنين متعطلاً بطالاً يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أتفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعالى.

ثم هبى أن الجهد فى آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا.

فلعل اليوم آخر عمرك.

فلم لا تشتغلين فيه بذلك فإن أوصى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف؟ هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟

أتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين: غدًا غدًا فقد جاء الغد.

وصار يومًا فكيف وجدته أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يومًا كان له حكم بالأمس بل تعجزين عنه اليوم فأنت غدًا عنه أعجز وأعجز، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى

فـأخـرها إلى سنة أخـرى مع العلـم بأن طول المدة يزيد الشـجـرة قـوة ورسوخًا ويزيد القالع ضعفًا ووهنًا فـما لا يقدر عليه فى الشباب لا يقدر عليه قط فى المشيب.

بل من العناء رياضة الهرم، ومن التعـذيب تهذيب الذين والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك.

فإذا كنت أيتـها النفس لا تفـهمين هذه الأمور الجلـية وتركنين إلى التسويف.

فما بالك تدعين الحكمة وأية حمـاقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما يمنعنى عن الاستقـامة إلا حرص على لذة الشهوات وقلة جرى على الآلام والمشقات فـما أشد غباوتك وأقبح اعتـذارك إن كنت صادقة فى ذلك فـاطلبى التنعم بالشهـوات الصامـتة عن الكدورات الدائمـة أبد الآباد ولا قطع فى ذلك إلا فى الجنة.

فإن كنت ناظرة لشـهوتك فالنظر لها فى مـخالفتهـا فرب أكلة تمنع أكلات.

وما قـولك فى عقل مريض، أشـار عليه الطبيب بتـرك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طوال عمره وأخره إنه إن شرب ذلك مرض مرضًا مزمنًا وامتنـع عليه شربه طول العمر فما مقتـضى العقل فى قضاء حق الشهوة أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضى شهوته فى الحال خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام.

حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثـمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة. وعذاب أهل النار.

أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته وليت شعرى ألم الصبر على الشهوات أعظم شدة وأطول مدة.

أو ألم النار فى دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ما أراك تتوبين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحمق جلى.

أما الكفر الخفى فهو شعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب وأما الحمق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك فى ذلك بجميع الحيل أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من رسول الله ﷺ حيث قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى».

ويحك يا نفس لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور، فانظرى لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولا تضيعى أوقاتك فالأنفاس معدودة فإذا مضى فيك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمى الصحة قبل القسم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت.

واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها، يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد

من غير حيـة وليد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك أفـتظنين أيتها النفس أن زمهـرير جهنم أخف بردًا وأقـصر مدة عن زمـهرير الشـتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كـلا أن يكون هذا كـذلك أو أن يكون بينـهمـا مناسبة.

فى الشدة والبرودة أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى هيهات لما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجنة والنار.

وسائر الأسـباب فـلا يندفع حر النار وبردها إلا بحـصن التوحـيد وخندق الطاعات وإنما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسـبابه لا فى أن يندفع عنك العـذاب دون حصن كـما أن كـرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك الطريق استخراجها من بين حديدة وحـجر حـتى تدفعى بها بـرد الشتاء عن نفـسك وكمـا أن شراء الحطب والجبة فما يستغنى عنه خالقك ومولاك، وإنما تشترينه لنفسك.

إذ خلقـــه سببًا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهدتك أيضًا هو مستغن عنها وإنما هى طريقك إلى نجاتك.

فمن أحسن فلنفسه ومن أسـاء فعليها والله غنى عن العالمين ويحك يا نفس، انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة.

وكما بدأنا أول خلق نعيده، وكما بدأكم تعودون، وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا.

ويحك يا نفس إذا ما ألفت الدنيـا وأنست بها فعز عليك مفارقـتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين فى نفسك مودتها فاحسبى أنك غافلة

عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المغرق.

بينك وبين مسحابك، أفتريسن أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمن بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه.

ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى. أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك.

ومالك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ولذلك قال سيد البشر ﷺ إن روح القدس نفث في روحي أحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، وعش ما شئت فإنك ميت.

ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى.

أما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم.

أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤجلون ما لا يدركون بين كل واحد قصراً وقوى إلى جهة السماء وقوة قبر محفور تحت الأرض فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا.

يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينًا ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعًا أما تستحين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم.

وأحسب أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء فقيسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا.

واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء.

يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك، عجبًا لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها أو ما تتفكرين أن النجاة لا معنى لها إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك أفما تعرفين إنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد مما على الأرض سجد لك.

وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أن على الملوك الذين كانوا من قبلك، **﴿فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا﴾**[1]، فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض.

سلم لك الشرق والغرب حتى إذا عنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأتى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاً عن محلتك فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك.

فما لك لا تتركينها ترفعًا عن خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيًا من سرعة فنائها فما لك لا تزهدين فى قليلها بعد أزهد فيك

---

(1) سورة مريم الآية ٩٨.

كثيرها وما لك تفرضين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس.

يسبقونك بها ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها فللدنيا يسبقك هؤلاء الأخساء فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكون فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين فى جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكونى فى صف النعال.

من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل فيا حسرة عليك، إن خسرت الدنيا والدين.

فبادرى ويحك يا نفس، فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت ورد النذير فمن ذا يصلى عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك بعد الموت، ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت.

ويحك يا نفس ما لك إلا أيام معدودة هى بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نقصك.

فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك، أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود آتيك والفزع الأكبر بين يديك.

أما علمت يا نفس أن عسكر الموت عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم، أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت فى أمنيتهم ويوم من عمرك لو

بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه، وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة.

ويحك يا نفس، أما تستحين تزينين ظاهرك للخلق، وتبارزين الله فى السر بالعظائم، أفتستحيين من الخلق، ولا تستحين من الخالق.

ويحك، أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين إلى الله وأنت فارة، وتذكرين بالله وأنت له ناسية.

أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة، وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك.

ويحك يا نفس، لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك

ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك.

ومع هذا فتعجبين بعملك، وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الربح فى يديك، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزلك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتى ألف سنة.

وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه، ويحك يا نفس ما أقذرك، ويحك يا نفس ما أوقحك، ويحك يا نفس ما أجهلك.

وما أجرك على المعاصى، ويحك كم تعقدين فتقضين، ويحك كم تعقدين فتعذرين، ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك

كأنك غير مرتحلة عنها أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثير وبنوا مشيداً وأملوا بعيداً فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً، ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ما أنت إلا فى هرم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابنى على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك.

أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن.

أو يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس إنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك.

ولا تحزنين بنقصان عمرك وما نفع مال يزيد وعمر ينقص، ويحك يانفس، تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك.

فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذرى أيتها النفس المسكينة يومًا إلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدًا أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته.

فانظرى يا نفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابًا وللجواب صوابًا.

واعملى بقـية عمرك فى أيام قـصار لأيام طوال وفى دار زوال لدار مقام.

وفى دار حزن ونصب لدار نعـيم وخلود اعملى قـبل أن لا تعملى اخرجى مـن الدنيا اخـتيار خـروج الأحرار قـبل أن تخرجى منهـا على الاضطرار ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا.

فرب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك ويفرح ويلهـو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار، فليكن نظرك يا نـفس إلى الدنيا اعتبـاراً وسعيك لها اضطراراً ورمقـك لها اختياراً وطلبك للآخـرة ابتداراً ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى وفيها الناس ولا ينتهى.

واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار.

فإنه يسار به وإن لم يسر فـاتعظى يا نفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا لهـذه الموعظة واعيـة فإن كـانت القسـاوة تمنعك عن قبـول الموعظة فاستعينى عليها بدوام التهجـد والقيام، فإن لم تذل فبالمواظبة على القيام فان لم تذل فبقلة المخالطة والكلام، فإن لم تذل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، فإن لم تذل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه وأنه قد تراكمت ظلمة الذنـوب على ظاهره وباطنه فوطنى نفسك على النار، فقـد خلق الله الجنة، وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلـق لها أهلاً، فكل ميسر لما خلق له فلم يبق فيك مجال للوعظ.

فاقنطى من نفسك، والقنوط كبيرة من الكبائر، نعوذ بالله من ذلك فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء.

مع انسداد طرق الخير عليك. فإن ذلك اغترار وليس برجاء فانظرى الآن هل يأخـذك حزن على هذه المصـيبـة التى ابتليت بها تسـمح وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت فمستقى الدمع مع بحر الرحمة فقد بقى فيك موضع للرجاء فواظبى على النياحة والبكاء واسـتـعـينى بأرحم الراحـمين، واشـتكى إلى أكـرم الأكـرمين وأدمنى الاستـغاثة ولا تملى طول الشكـاية لعله أن يرحم ضعـفك ويغيـثك فإن مصيبـتك قد عظمت وبليتك قد تفاقـمت وتماديت قد طال وقد انقطعت منك الحيل. وراحت عنك العلل.

فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك.

فافزعي إليـه بالتفرغ واخشعى فى تضـرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك، لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر.

وقد أصبحت إليـه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتـاجة وقد ضاقت بك السبل وانسـدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيـل ولم تنجح فيك العظات.

بهذا يكون هذا الكتاب قد تم بحمـد الله وتوفيقه، وفى هذا القدر كفاية لمن وقف عن قول الله تعالى ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا﴾[1].



(١) سورة الإسراء الآية ١٤.

فهـــرس كتـــاب

الصفحة

المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت : ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠